دليل المناضل

مكتبة الشبيبة

١

د. حكمت قفالجمالي

الماركسية باختصار



المكتبة التقدمية

الماركسية بأختصار

حقوق الطبع محفوظة
لدار ابـن خلدون

بيروت ـ كورنيش المزرعة
بناية ريفييـرا سنتر
هاتف ٣١٢٣٣٥
ص ٠ب ٩٣٠٨ ـ ١١

الطبعة الاولى
١٩٧٩

دليل المناضل

مكتبة الشبيبة — ١ —

د . حكمت قفلجملي
ترجمة فاضل جنكر

الماركسية باختصار

دار ابن خلدون

الماركسية باختصار

تؤدي الماركسية (او المادية التاريخية) وظيفتين هما : ١ ـ تفسير العالم ٠ ٢ ـ تغييره ٠٠

ونعني بالعالم شيئين هما : ١٠ ـ الطبيعة ٠ ٢ ـ المجتمع ٠

يناضل الانسان طوال حياته وفي سبيل تأمين هذه الحياة ضمن اطر الطبيعة من جهة وفي كتف المجتمع من جهة اخرى،من اجل جعلهما ـ الطبيعة والمجتمع ـ اكثر فائدة له واروع جمالا امام ناظريه ٠

وحتى يتمكن الانسان من جعل كل من الطبيعة والمجتمع اكثر منفعة وجمالا ينبغي عليه قبل كل شيء ان يفهم كنههما ويعرف كيف يسيران ، اي ان عليه ان يفسر كلا من الطبيعة والمجتمع ٠ فقبل ان يتعلم الناس ان الفحم الحجري المدفون تحت الارض قابل للاحتراق، كانوا ينظرون اليه بعين الريبة والشك ، دعك من

الافادة منه ، ذلك لان النباتات لم تكن تنبت في المناطق الغنية بهذه المادة ، ولكن هؤلاء الناس بعد ان توصلوا الى معرفة ماهية الفحم الحجري قاموا بتغيير مكانه (بنقله من مدفنه في باطن الارض الى سطح الارض) وتبديل شكله (بغسل المادة الخام وتحويلها الى قطع هندسية قابلة للنقل والاستخدام كمادة للتدفئة) ..

ان الماركسية هي محتوى وجوهر نضال الانسان بصورة عامة والطبقة العاملة بصورة خاصة داخل المجتمع . ويعرف مثل هذا النضال باسم : « النضال او الصراع الطبقي » . وتقوم الماركسية بـ : ١ ـ تفسير الصراع الطبقي وتبيان ماهيته . ٢ ـ وتغيير هذا الصراع الطبقي من خلال انتزاع السلطة من ايدي الرأسماليين بالثورة اولا وعبر الغاء الطبقات ثم انهاء الصراع الطبقي ثانيا . فأي الطبقات تتفق مصالحها مع تبيان الصراع الطبقي ومن ثم الغائه ؟ انها الطبقة العاملة . وهذا يمكننا من ان نقول بأن الماركسية هي علم الطبقة العاملة تستفيد منه في تفسير المجتمع وتغييره واي الطبقات في يومنا هذا تريد ابقاء كل شيء على حاله ؟ انها طبقة الرأسماليين (ارباب العمل) واصحاب الاراضي والعقارات . ومن هنا نجد ان الاثرياء وكبار الملاك يخافون الماركسية قدر خوفهم من عزرائيل .

اما نحن جماهير الشعب الفقيرة من فلاحين وعمال الذين لا يملك احدنا حصيرة فاننا نريد من

اعماق قلوبنا تغيير هذا المجتمع وهذه الادارة القائمة ، مما يجعلنا نرغب بقوة في تعلم الماركسية التي هي علم صناعة الثورات ، علم قلب تلـــك الادارة الظالمة وذلك المجتمع الفاسد لانها كما قال احد الشعراء : « مدافع رشاشة بين ايدينا » ٠

وبما ان مصممون على تعلم الماركسية فان علينا اولا ان نحفـر « منهجـــا » في ادمغتنا ٠ وما هو هذا المنهج الماركسي ؟ انه كما قلنا سابقـــا : ١ ــ تفسير الكون ٠ ٢ ــ وتغييـــره ٠٠٠ شرط ان لا يغيب عنا ان الماركسية هي علم اجتماعي خاص ٠ والمنهج الماركسي يمتاز عن بقية العلوم التي هي نتـاج المجتمع في حقيقة كونه لا يقتصر على المجتمع حسب بل يتجاوز الى الكون كلـه ٠

والخلاصـة :

١ ــ الماركسيةتفسر الحوادث والوقائع الجارية٠

٢ ــ وهي تبين كيفية تغيـــر الحوادث والوقائع وتبدلها ٠

الجزء الاول

التفسير

ان عملية تفسير شيء ما تعني فهم مضمون ذلك الشيء وكيفية حدوثـــه ثم افهامـــه للآخرين ، فما هي الاشياء التي تظهر امامنا وتقتضي منا فهمهـــا ؟ انها : ٠١ الطبيعة ٠٢ والمجتمع ٠٠٠ وباختصـــار لكي نفهم ماهية منهجنا التفسيري ينبغي علينا ان نعـــرف كيفية القيام بعملية التفسير في هذين الميدانين :

أ ـ التفسير في حوادث الطبيعة : السبب والغاية

نعني بالطبيعة كل ما يوجـد خـارج الامور التي تحدث بين الناس ، والسؤال الذي نطرحـــه الآن هو : كيف يتم تفسير حـوادث الطبيعة ؟ ان ذلـــك يتم بأحد الاسلوبين التاليين :

١ ٠ بالنسبة للتفسير الـــذي يستند الى فلسفة اصحاب رؤوس الامـــــوال فان علينا حتى نفهم ماهية شيء ما ، ان نعرف «الغاية» او «الهـــدف» الذي وجد من اجله ذلـــــك الشيء ، اي ان بحثنا يبـدأ بسؤال : « لماذا » ؟ « فنقول على سبيل المثال لمـــاذا او لاية غاية ينزل المطـــر ؟ لري حقوقنا ومزروعاتنا ، ولماذا تشرق الشمس ؟ لاضاءة دنيانا ، مفهوم ، ولكـــن لماذا تغيب ؟ ليحل الظلام في الليل وننام بصورة افضل ٠٠ الخ . ان فلسفة اصحاب رؤوس الاموال وغيرهـــم من الطبقات الحاكمة الاخرى تسعى جاهدة من اجل الاجابـــة على سؤال : « لماذا ؟ » الذي رأيناه لتفسير الامـور ٠ ولكن لنتساءل الآن : هل استطعنا ان نفهم ماهية المطر وماهية شروق الشمس وغروبها من خلال الاجوبة التي اعطيت للاسئلة المستهلة بكلمة لماذا ؟ لا والف لا ٠

٢ ٠ اما بالنسبـــة للتفاسير المستندة الى فلسفة العمال التي هي « المادية التاريخيـــة » فانها تعتمد من اجل فهم امرها ، على معرفة كيفية حصـــول ذلك الامر اي معرفة « السبب » او « العلة » الكامن وراءه ، اي ان بحثنا يبدأ بـ (كيف) فاذا سألنا : « كيف ينزل المطر ؟ » مثلا ، نقول : « يتكاثف بخار الماء الموجـود في الهواء لدى دخوله طبقة جوية باردة ، وبعـد ان يتعرض لطبقة جوية أكثر برودة يتحول الى قطرات مـــاء كما يحدث لبخار الماء الذي يتحول الى قطرات ماء حيـن يصطدم

بغطاء الوعاء وتتساقط القطرات واحدة بعـــد اخرى ، ويكون هطول المطر قد بدا » · في حين نجيب على سؤال: « كيف تشرق الشمس وتغيب ؟ » نقول : « بما ان الكرة الارضية في حالة دوران حول ذاتها فان قسمها المعرض للشمس يكون مضيئا ، كما ان قسمها الآخر يظل غارقا في الظلام · وهذا يؤدي الى وجـــود النهار في القسم الاول والليل في القسم الثاني » ·

هل فهمنا الآن ماهية المطر وماهية الليل والنهار ؟ نعم ، ولماذا ؟ لاننا بحثنا عن **علل او اسباب الاحداث** ، **لا عن غاياتها او اهدافها** ، اي اننا بحثنا عـــن كيفية حدوثها لا عن الهدف من وقوعها · وهذا يعني اننا حين نريد فهم ماهية امر ما فان علينا ان نعـــرف سبب ذلك الامر لا غايته · وهكذا نجد ان تفسير امر ما لا يتم الا من خلال الكشف عن الاسباب التي ادت اليه ·

وفي الفلسفة التي تسمى : « علم العلوم » يدعى :

١ · المذهب الذي يحاول تفسير الاحداث من خلال اسبابها بـ : «**السببية** » ·

٢ · والمذهب الذي يحاول تفسير الاحـــداث من خلال غاياتها بـ : « **الغائية** » ·

ومذهبنا نحن ليس غائيا بـــل سببيا لانه الطريق الصحيح ، وما الغائية الا انحراف وضياع كما رأينا ،

فكيف قبل الناس ان يرتكبوا مثل هذا الخطأ طوال قرون بل وما زالوا يرتكبونه حتى يومنا هذا ؟ بما اننا سنبين فلا بد لنا من الكشف عن سبب مثل هـذا الانحراف عن جادة الصواب ، وحتى نفهم اسباب الغائيـة علينا ان نستعرض جميع انواعهـا التي ظهـرت على مسرح التاريخ · لقد شهد التاريخ العديـد من انواع الغائية غير ان ابرزها ثلاثة هي :

١ · **الغائية الوحشية** : تـدعى فلسفة المتوحشين البدائيين القدامى او الذين تـم اكتشافهـم مؤخرا ، بالفلسفة «الحيوية» · وبالنسبة لاولئـك المتوحشين فان كل الاشياء في الوديان والجبـال والكواكب و ·· هي كائنات ذوات ارواح · وقد توهم الانسان المتوحش بان السماء تنزل امطارها بنفس الطريقـة التي يتبعها حين يبصق ليخرج اللعاب الذي يفيض في فمـه ، مما جعله يفترض وجود غاية ما وراء تجمـع الضباب او كسوف الشمس وغيرها من حوادث الطبيعة ، وسبب ذلك يعود الى ان الانسان المتوحش كـان جاهلا جهلا مطبقا . وعاجزا عن التمييز بين الكائنات الحية والاشياء التي لا حياة فيها ، وهو لا يدرك بأن الصخـرة لا يمكنها ان تفكر مثلما يفكر دماغ الانسان · ومثل هذه الغائية هي غائية الجهل المطبق ·

٢ ٠ الغايـــة الغيبية (اللاهوتيـــة) : بالنسبة للفلسفة الغيبية ، فان كـــل شيء يحدث في سبيل غاية واحدة تتمركز حول الروح المطلـــق ٠٠ فهطول المطر مثلا ناتج عن ان تلك الروح المطلق تريد ان تجعل حقولنا واراضينا وفيرة الخيرات ، اما الجفاف فهو ناتج عن كونها تريد ان تعذبنا وتقتص منـــا ٠٠ اذن فلنخرج للاستقاء وذبح القرابين ، ولكن اذا استمـــر الجفاف بعد ذلك فهذا يعني ان جرائمنا اكبر من ان تغفر عنها ٠٠ غير اننا نقرأ في الجرائد ان الاوروبييـــن يهددون غيوم السماء بواسطة المدافع عندما تكـــون الامطـــار ضارة بالمحاصيل ، وينزلون هذه الامطار بواسطـــة الطائرات عندما يكونون بحاجة اليها ٠٠ ولكن بعض الناس عندنا لا يقبلون حتى سماع مثل هـــذه الاخبار بسبب كونهم غائيين ، ومثل هذه الغائية تسمى الغائية الغيبية ٠

٣ ٠ الغائيةالمعاصرة : وهي فلسفة الرأسمالية ، ففلاسفة الرأسمالية المحترمين حين يسألون مثلا : «لماذا يحدث خسوف القمر ؟ » فانهم يجيبون : لانه غضب منا ، فهو يخبىء وجهه الجميل ٠ نعم انهم يجيبونهكذا٠ ولكن عن طريق الكثير من اللف والـــدوران حتى لا يظهر للعيان مدى تفاهة اقوالهم ٠ فعلى الرغـــم من ان قسما من العلماء البرجوازيين ، مضطرين تحت ضغـــط تقدم المعارف الانسانية الى ان يكونوا سببين في العديد من

علوم الطبيعة ، فان الفلسفة البرجوازية، التي هي « علم العلوم » تظل غائية على الـدوام اضافة الى ان طريقة التفسير واسلوبه حتى في اكثـر العلوم طبيعية ومادية تظهر طريقة غائية · والنظرية الفريدة التي نجدها عند عمداء العلماء البرجوازيين وزعمائهم في وقتنا الراهن هي النظرية التكاملية او التطورية ··

لننظر الى مثال تكون الانسان وظهوره على وجه الارض ·· فان هذه القصة بالنسبـــة للفلسفة الغيبية اللاهوتية معروفة ولا حاجة الى تكرارها ·

ولكن نظرية البرجوازيين التطورية تقول : ان كل شيء تحت الشمس يتكامـــل يوما بعد آخـر · فخلال العملية **الغائية** الهادفـة الى التكامـــل التي مارستها المخلوقات الحيوانية درجة بعد اخرى ، ويوما بعد آخر فان هذه المخلوقات الحيوانية وصلت في آخـــر المطاف الى مرتبة « اشرف المخلوقات » ، فاذا مـــا سألناهم : « ولماذا كان ظهور الانسان ؟ » فانهم يجيبوننا : « ذلك لان غاية الكائنات الحيـة هي السمـــو والارتقاء . اي التكامل » · وما تفتأ الطبيعة والمجتمع كل في ميدانه ، يتكاملان بصورة مستمرة ·· الخ ··

ولكننا نعرف جيدا ان العديد مـن الحيوانات في الطبيعة لم تستطع ان تثبت على ما هي عليه ناهيك عن

تكاملها وتطورها · فنحن لا نستطيع الآن ان نعثر على حيوانات الماموت الضخمة التي تشبـــــه الفيلة الا ان عظامها المتحجرة تدلنا على حقيقة انهـــا عاشت ذات يوم ، مما يعني ان اجناس الحيوانات لا تتكامل كلها بصورة حتمية ومطلقة ، بل ربمـــا تعرضت للانقراض ايضا · فهذه الاجناس اما ان تعيش وتتطور وتزدهر ، او انها تنقرض وتزول تبعا للظروف المحيطة بها ·

لماذا تتطور الاجناس الحيوانية نحو التكامل ؟ لان التكامل غاية بذاته ، ولماذا تنقرض اذن ؟ الئن غايتها هي للانقراض ؟·

نستخلص من هذه الامثلة ان التكاملية التي غدت عقيدة الفلسفة البرجوازية ومذهبها الارجـــح وزنا . لم تفعل شيئا في نهاية المطاف . اكثر من انها ابدلت «الروح المطلقة» بروح من نوع آخر اطلقت عليها اسم : التكامل · فاذا كانت الغاية في الفلسفة الغيبية هي تحقيـــق ارادة الروح المطلقة فان هذه الغاية في الفلسفـــة البرجوازية ليست سوى **التكامل** الذي هو نوع مـــن انواع الغيبية المعاصرة ·

والخلاصة : تتحدد الغائية باحد امرين : ١ · اما ان تكون جهلا مطبقا ٢ · او خداعا وتضليلا مكشوفا ·

اما نحن فاننا عندما نريـــد تفسير اي حدث او شيء ، نسارع الى البحث عن اسبابه ، اذ ما من حادثة في الكون الا نتيجة لسبب محدد ٠

وهذه الاسباب ليست مبعثرة بين السحب في كبد السماء يتجول كل منها بمفرده معزولا بعضها عن بعض، اذ ربما اقتضى حدوث حادث ما اجتماع عدد كبير مـن الاسباب ، وهذه الاسباب مرتبطة ببعضها كأنها حلقات السلسلة تتولد احداها من الاخرى ٠

فلننظر الآن الى الامثلة التالية :

أ ـ كي يهطل المطر يجب ان يتوفر عـــدد من الاسباب مثل : وجود بخار الماء في الهـواء اولا ، وهبوب رياح باردة ثانيا، وعدم حدوث هذه البرودة بشكل مفاجيء وبصورة شديدة جـــدا ثالثا (لان ذلك يؤدي الى هطول البرد بدلا من المطر) ٠

ب ـ وهذ الاسباب نفسها متولدة عـــن سلسلة اخرى من الاسباب ٠ فمن اجـــل توفر بخار الماء في الهواء لا بد من وجود مياه (بحار ، بحيرات) او غابات في المناطق المجاورة ، او ان تكون الغيوم قد انتقلت الى هناك من اماكن بعيدة على اجنحة الرياح القوية ٠

ان تتابع الاسباب ، وتولد بعضها من بعض ، ثم تكوينها سلسلة مستمرة ، يؤدي الى ظهور (القوانين) فالقانون هو : ارتباط جملة من الاسبـاب ارتباطا سببيا (أسباب ـ نتائـج) . ومهمـة العلم هي الكشف عن القوانيـن اي سلاسل الاسباب ـ النتائـج في ميادين الطبيعة والمجتمع ، ومن اجل ان يغـدو القانون قانونا علميا لا بد من ان تتوفر فيه جملة الشروط التالية :

١ ٠ ينبغي للاسبـاب نفسهـا ان تؤدي الى النتائج نفسها بصورة حتمية ٠

٢ ٠ ينبغي لهذه العملية ان تصـح على الدوام (في كل الازمنة) ٠

٣ ٠ ينبغي لهذه العملية ان تصح في كل مكان ٠

ولنأخذ مثلا قانون الجاذبية :

١ ٠ اذا القينا بجسم اثقل من الهواء (حجر) فلا بد له من ان يسقط ٠

٢ ٠ مثل ذلك السقوط كانيحصل في الماضي وهو يحصل الآن وسيحصل مستقبلا ٠

٣ ٠ عملية سقوط الحجر هـذه ليست مقصورة على بلد لوحده بل انها تحصل في كل مكان٠

ومعنى ذلك ان سقوط الحجر ليس صدفة ، بل هو قانون ففي كل مكان وزمان وعندما تتوفر الشروط فلا بد من حصول مثل هذا السقوط ..

أ ـ ان الانسان يفسر الكون (الطبيعية والمجتمع) اولا ثم يغيره بعد ذلك في سبيل تأمين حياته .

ب ـ والماركسية هي علم تفسير المجتمع وتغييره في يد الطبقة العاملة وهي سلاحها الماضي في صراعها الطبقي

١ . فهي تفسر الصراع الطبقي وتوضح قوانين ذلك الصراع .

٢ . وهي تغير المجتمع الرأسمالي المستند الى اساس طبقي لتحوله الى مجتمع اشتراكي بدون طبقات .

ج ـ يأخذ التفسير شكلين اثنين :

١ . التفسير الرأسمالي الذي يبحث عن الغاية انطلاقا من سؤال «لماذا؟» فيراوح حيث هو .

٢ . والتفسير العمالي الذي يبحث عن السبب انطلاقا من سؤال « كيف ؟ »

د ـ هناك ثلاثة انواع من الغائية هي :

١ . الغائية الوحشية « الحيوية » وهي اصباغ

الروح على جميع الموجودات وسببها الجهل التام ٠

٢ ٠ الغائية الغيبية : وهي التي تعتبر ان غاية كل شيء هي تنفيذ مشيئة الروح المطلقة ٠

٣ ٠ الغائية المعاصرة : وتسمى التكاملية، وهي صوفية العصر الحديث ٠

هـ ـ الاسباب :

١ ٠ ربما كان وراء حادثة واحدة اكثر من سبب ٠

٢ ٠ كل حادثة نتيجة لما قبلها وسبب لما بعدها ٠

و ـ القانـون :

١ ٠ هو سلسلة الاسباب ٠

٢٠ ويكون حتميا وصحيحا في كل زمان وفي كل ومكان ٠

ز ـ مهمة العلم هي : الكشف عن القوانين التي تحكم الحوادث ، اي عن سلاسل الاسباب المؤدية اليها ٠

ب ـ التفسير في حوادث المجتمع :

كثيرا ما يقول العلـــم الرأسمالي : « حسنا ٠٠ لنفسر الاحداث التي تجري في الطبيعة من خلال الاسباب والقوانين ٠ الا انه مـــن المستحيل ان تحـدث الامور

المتعلقـــة بالانسان والمجتمـــع الانساني بفعل اسباب محددة ، ذلك لان الانسان حيوان عاقـــل ، فهو لا يفعل الشيء الذي لا يرغب فيه ، كما انه يفعل الشيء الذي يريده دون غيره ٠٠ الخ وهذا يعني ان مجريات الحوادث الانسانية والاجتماعيـــة محكومة بجملة غايات ، لان الانسان حر الارادة » ٠

وعندما نقول ان الانسان يفعل مايريده ، ويمتنـــع عما يرغب عنه ٠٠ وان مسيرة المجتمع محكومة بغاية، نكون كما لو قلنا : ليس وراء ما يحدث سبب محـــدد ٠ وهذا هو ما يسمى باللاحتمية ٠ والعلم الرأسمالي هو علم لا حتمي ٠ اما علمنا ، علم الطبقة العاملة فهو علم حتمي ٠ لانه يقول بان كل الحوادث الانسانيـــة منهـــا والاجتماعية مثلها مثل حوادث الطبيعة ، تنتـــج عـــن اسباب محددة واضحة بهذا القدر او ذاك ٠ ومن اجـــل ان نفهم ما قلناه حتى الان لنمعن النظـــر في المثاليـــن التاليين :

١ ـ **الحوادث الانسانية :** يستيقظ احد العمال في الصباح الباكر ويرتدي ثيابه بسرعة ثم ينطلق مغادرا البيت قاصدا العمل٠٠ ويجري تفسير هذا الامر بالنسبة للعلم الرأسمالي على النحو التالي : يستيقظ العامل في هذا الوقت المبكر ويذهب الى المعمل لانه يريد ان يفعـــل

ذلك · ولو انه لم يرد ذلك لامكنه عدم الذهاب ، غير اننا نعرف ان العامل لا يذهب الى المعمل من اجل الذهاب الى هناك فقط ، ولكنه يفعل ذلك لانه مضطر الى العمل من اجل اشباع بطنه وبطون اولاده وعياله · وحين يمارس الانسان اي عمل فلا بد من آلة ، وهذه الآلة في المجتمع الرأسمالي ليست موجودة الا في المعمل الذي يعجز اي من العمال عن امتلاكه ، فهو ملكية خاصة للرأسمالي مما يجعل العامل مضطرا للذهاب الى الرأسمالي صاحب المعمل من اجل الحصول على عمل · وهنا يشترط عليه الرأسمالي ان يشتغل من اذان الصبح حتى اذان العشاء كي يستطيع التغلب على منافسيه من اصحاب المعامل المماثلة·وهل يستطيع العامل ان يرفض مثل هذا الشرط اذا اراد ؟ نعم شريطة ان يكون مستعدا للموت جوعا ··· ولكن ما من احد يريد الموت جوعا · ولذلك نجد عاملنا يستيقظ من الفجر ويركض مسرعا الى المعمل ·والسبب الكامن وراء هذا الركض هو الجوع·

يستطيع الفلاح ان يزرع ارضه قمحا او شعيرا او شمندرا حسب ارادته · ولكن هل يفعل الفلاح ما يفعله لمجرد كونه اراد ذلك ، وبارادته الحرة ؟ يقول العلم البرجوازي : «ان الفلاح حر في ارادته ، وهو قادر على الا يزرع المحصول الذي يرغب فيه » اما نحن فنقول بان هناك سببا محددا وراء قيام الفلاح بزراعة

ارضه شعيرا بدلا من القمح · وهـذا السبب ليس لان الفلاح اراد ذلك ، بل لان القمح في العام الماضي كـان بخس الثمن مما جعله يفضل زراعة الشعير الذي يـدر عليه مالا اكثر ·

وهذا الافندي لا يلبس هذا المعطف السميـك ذا الياقة المصنوعة من الفرو لانه يحب ذلك · ولكنه يلبسه حين يكون طقس الشتاء زمهريرا ، كي لا يتعرض جسده الناعم الى اذى البرد · وهذا العسكري لا يشرب مطرة الماء حتى اخر قطرة فيها لانه يحب ذلك ، بل لانه تناول قبل الخروج الى التمارين الصباحية صحنا من شـوربة الفاصولياء المالحة كالسم واكل معها كمية من الخبـز تكفيه كيلا يجوع قبل انتهاء فترة التمرين · ولو شـرب ارطالا من الماء لما استطاع اطفاء الحريق المشتعـل في معدته · ولننظر الى هذا السكران الذي اطفأه السكر واعماه ، انه يقف ويصرخ باعلى صوته : هذا الرصيف لي انا، وذلك لك انت، ثم يشرع باطلاق سيل من السباب والشتائم والوان التجديف ··· لماذا ؟ لو ان اكثرنـا عقلا واتزانا شرب مقدار ما شربه هذا السكران مـن الكحول ، لاصبح بالضرورة سخريـة وباعثـا على الاستهزاء بنفس الدرجة ، لانه عندما يتعرض الدمـاغ الى التسمم بفعل الكحول يشرع المرء في تخيل بحـار الدماء والنيران وقد احاطت به من كل الجوانب ·

من الامثلة السابقة يتضح لنا ان الانسان حين يقوم باي عمل ، فانه يكون راغبا في القيام به · غير ان السبب الكامن وراء قيامه بمثل هذا العمل ليس هو الرغبة ، انما الضرورة · فهو مضطر للقيام بالعمل · ووراء ارادته ورغبته سبب محد واضح · ولكن هل يمكن للانسان عندما يأتي عملا ، الا يكون راغبا فيه في نفس الوقت ؟ ذلك ممكن اذ انه يأتي العمل ولو رغم ارادته · فالعامل لا يريد ان يظل محروما من النوم ، ولكنه مضطر للاستيقاظ باكرا · كما ان الفلاح يتوهم بان زراعته للشعير بدلا من القمح هذه السنة تعود الى رغبة منه ، غير ان حقيقة الامر : ان سعر القمح في العالم الغارق في بحر الازمات زهيد جدا حيث ان جميع الناس يحاولون اغراق همومهم في الكؤوس فيكثرون من شرب البيرة مما يؤدي الى رفع اسعار الشعير ، المادة في صناعة هذا المشروب · والفلاح يرغب في زراعة الشعير املا منه في الحصول على كمية اكبر من المال، او لم يكن الفلاح حرا في ارادته بحيث يكون حرا في عدم زراعة الشعير ؟ لا ، طالما انه متحفظ بعقله · ولا يستطيع العامل التخلص من الاستيقاظ في الصباح الباكر والعمل حتى آذان العشاء طالما ظل يعيش في المجتمع الرأسمالي · والاسباب التي تجعل الانسان يرغب في هذا ويرغب عن ذاك هي على نوعين :

أ ـ الاسباب الداخلية :

عندما تناول وجبة مالحة لا بد من اكثار شرب الماء ، وعند شرب الكحول لا بد من الثرثرة والهذيان ٠

ب ـ الاسباب الخارجية :

١ ـ من الطبيعة (ارتداء الالبسة الصوفية شتاء)
٢ ـ من المجتمع (يظل العامل محروما من النوم كي لا يجوع)

٢ ـ **الحوادث الاجتماعية** : ان المجتمع ليس الا مجموعة من الناس ٠وهناك كثير من الامور التي تجري فما هي الاسباب الكامنة وراءها ؟ وهل تظهر الحوادث الاجتماعية على خشبة المسرح بفعل اسباب **معينة ومحددة** ، شأن حوادث الطبيعة ، ام انها تبرز دون ان يكون وراءها اي سبب محدد ؟ وفي حال وجود اسباب معينة ، فهل لهذه الاسباب علاقة بالانسان ام لا ؟ يقول العلم الرأسمالي : ان الحوادث الاجتماعية ليست ناتجة عن اسباب معينة ومحدودة مثل حوادث الطبيعة كهطول المطر وكسوف الشمس ٠ اذ ان الحوادث الاجتماعية غير محتمة، ولذا فهي تحصيل كيفما اتفق محكومة بغاية لا نستطيع فهمها ٠ وليس لهذه الحوادث الاجتماعية اية علاقة بارادة الانسان ورغباته ، لان الانسان عاجز عن

تغيير المجتمع عندما يريد ووفق ما يريد ، لينقله الى حيث يشاء ... الخ .

ولكن المسألة مختلفة تمام الاختلاف في نظر علم الطبقة العاملة ، ذلك لانه :

□ **اولا : ليست الحوادث التي تحدث في المجتمع** حوادث تجري كيفما اتفق دون اسباب محددة . بل هي، مثلها مثل حوادث الطبيعة، محكومة بطائفة من القوانين **المحددة** . فاذا ظهر النظام الرأسمالي في بلد ما ، على سبيل المثال ، فلا بد للمشاغل اليدوية الصغيرة هناك من ان تخلي مكانها للمعامل الكبيرة . واذ ذاك يتحول العديد من الحرفيين القدامى ومن افراد العائلات المتوسطة الى عمال في تلك المعامل . ومع ازدياد عدد العمال يوما بعد آخر تزداد رؤوس اموال الرأسماليين ضخامة ، ولكن عددهم يتناقص ، ويحتد الصراع الطبقي ، وتنتشر الافكار الماركسية بين صفوف الطبقة العاملة . ثم يظهر حزب يأخذ اسم الحزب الاشتراكي ، حزب من طراز جديد ، لم ير التاريخ مثيلا له من قبل ، وفي النهاية تندلع الثورة الاشتراكية ... الخ . ان هذا المسار ، هو القانون الذي يحكم سير المجتمع . هاكم مثالا آخر : حيثما وجد اسلوب الانتاج الرأسمالي فلا بد من تفاقم ازمة اقتصادية دورية كل ٥ الى ١٠

سنوات • وهذه الازمات لا بد لهـا من ان تجر وراءها حروبا حتمية • وفي زمن ثورية الرأسماليـــة لا تتأخر الحروب عن التمهيد للثورات ، فكمـــا ان هطول المطر وكسوف الشمس في الطبيعة يجريان وفق قوانين محددة، كذلك يكون تحول الطبقـــة الوسطى الى بروليتاريا ، وحدوث الازمات والحروب والثـــورات قد جرى وفق قوانين محددة •

□ **ثانيا** : واضح تماما ان الحوادث الاجتماعية كلها محكومة بالاسباب والقوانيـــن المحددة والمعنية • ولكن ما هي علاقة الانسان بهـــذه القوانين ؟ يسير المجتمع وفق مسار خارج عـــن ارادة الانسان بحسب وجهة نظر الفلسفة البرجوازيـــة • وليس للانسان اي تأثير على الحوادث الاجتماعيـــة ، لذلك نجد لسان حال البرجوازية الفـــذ ، يوجـــه الموعظة التالية الى العمال والفلاحين : « اغمض عيني ، واقـــوم بعد ذلك بأداء مهمتي « لان الانسان مهما فتح عينيه يظل عاجزا عن تغيير مسار المجتمع !•

ان وجهة النظر هذه ليست الا المعجونـــة المخدرة التي تقدمها الطبقة الرأسمالية الحاكمـــة للناس ، هذه الطبقة التي تريد الابقاء على كل شيء كما هو ، ولكن ،

العمال ليسوا مستعدين لقبول هذه الاسطورة وهضمها (لانهم لا «يقبضون» مثل هذه الخـــرافات) · ويعرف الشعب من تجربته بالذات انـــــه يقوم بتغيير كل شيء اثناء سعيه وعمله ، فهو يغير الطبقـــة والمجتمع وحتى نفسه · وطالمـــا ان المجتمـــع عبارة عن مجموعة من الناس ، فان مجريات الحوادث داخـــل هذه المجموعة لا بد لها من ان تجري بين الناس ، لذلك فلا بد لها من ان تجري وفق تأثير قـــوة الانسان وارادته · والامر هكذا في كل مجتمع من المجتمعات · فـــلا وجود لقوة فوقية في المجتمع تحكـم مسيرته خارج **قوة الانسان** · غير ان التأثير الذي يمارسه الفـــرد على المجتمع ليس تأثيرا **مطلقا متحررا من كل قيد وشرط بل هو تأثير مقيد ومشروط** · اي ان التأثير الـــــذي يمارسه الفرد على المجتمع مقيد بنمط ذلك المجتمع · وكلما تغيـــر المجتمع يتغير مثل هذا التأثير ايضا · ولننظر الى الامر داخل نوعين من المجتمعات :

١ · **في المجتمع الطبقي** : ان المجتمع الرأسمالي الذي ينقسم فيه الناس الى معسكرين ، معسكر «يشغل» وآخر « يشتغل » ، هو مجتمع طبقي · وعلى الرغم من ان مجريات الحوادث في المجتمع الرأسمالي ايضا هي، كلها ، من صنع الانسان ، الا ان هذا الانسان يعجز عن فعل ما يريد · حتى انـــــه احيانا يضطر الى ان يفعل

نقيض ما يريده تماما · فالعامل هو الذي يصنع السيارة التي هي آلة تستخدم كوسيلة للنقل والمواصلات ، ومع ذلك فان صانعها العامل لا يستطيع ان يركبهـــا عندما يرغب في ذلك · وكذلك نجد ان العامـــل الذي يخرج للبحث عن سوق يبيع فيها قوة عمله وهـو مصمم على بيعها يوميا بعشر ليرات ، يلتقي برأسمالي مصمم هو الآخر على شراء قوة عمل يومية من احـد العمال بست ليرات · فتبدأ المساومـــة ، الاول يطالب بعشر ليرات والثاني يعرض ست ليرات ، وبعد فترة مـــن الجدل والنقاش يتفق الطرفان على ثمان ليرات · هذا يعني ان كلا من الشخصين اراد شيئا لا يتطابق مع ارادة الثاني ولكنهما عندما التقيا لم تتحقق ارادة اي منهما · بل كان الحكم في الموضوع وسطي الاجرة اليوميـة للعامل في المجتمع في ذلك التاريخ · وهذا يعني ان الذي يحصل هو ما يقوله المجتمع لا ما يقوله الافـراد · يأمل الفلاح ان يبيع كيلو القمح بثمانيـن قـــرشا ، ولكن القمح لا يساوي في السوق سوى خمسيـــن · والفلاح المضطر الى تسديد الضرائب المترتبة عليه والديون التي اغرق نفسه فيها في فصل الشتاء مجبر عـــلى القبول بهذا السعر المتدني للسوق · في عـــام ١٩١٤ دخلت روسيا القيصرية ومعها الرأسماليون الـروس الحرب العالمية الاولى من اجل سحق الالمان وزيادة معدلات الاستغلال والسرقة · وانتظرت هي ومن معها النصر بفارغ الصبر،

ولكنها لم تعرض لخسران النصر المنتظر فحسب بل ولم تكتف بتلقي الهزيمة ، انما جـــرى نسف القيصرية والرأسماليين من اساسهما عبر اندلاع الثورة البلشفية ٠

هذا هو الوضع في المجتمع الطبقي دوما «حساب القرايا ، لا يتطابق مع حساب السرايا » ولكن ذلك لا يعني ان ما يجـــري في المجتمـــع الطبقي لا علاقة له بالانسان ٠ فالذين يحاربون هم الناس ، والذين يلحقون الهزيمة بالرأسمالية ويحققون انتصار الاشتراكية هم الناس ايضا ٠ ولكن هؤلاء الناس يعجزون عن الوصل الى النتائج التي يرغبون فيها تمامـــا ٠ ذلك لان هناك طبقات مختلفة المصالح متناقضة الاهـــواء في المجتمع الطبقي ٠ فكل طبقة تريد شيئا مختلفا عما تريده الطبقات الاخرى ٠ ولذلك نجد انه لا يتم تحقيق ما تريده ، هذه الطبقة او تلك مئـــة بالمئة ٠ ويمكن ان نمثل ذلك بأنه : لو اراد شخصان جر عربة الى الامام فان العربة تسير بخط مستقيم والى الامـــام ٠ ولكـــن لو اختلف هذان الشخصان على الطريق واراد احدهما جر العربة نحو اليمين في حين استمر الثاني عـــلى جرها الى الامام لوجدنا ان العربة تأخذ اتجاهـــا وسطا بين رغبتيهما ، ومخالفا لهاتين الرغبتيـــن ٠ فـــاذا شبهنـــا المجتمع الرأسمالي بأحدى العربات لوجدنا ان مصلحـــة الطبقة العاملة ورغبتها هي ان تسير العربة الى الامام في حين

ان مصلحة الطبقة الرأسماليـــة ورغبتهـــا تكون في تسييرها نحو اليمين · مما يؤدي الى ان يأخذ المجتمع اتجاها مغايرا لهذه الرغبة او تلك ·

تنبيه من الصوت الشيوعي! الفقرة التالية تتضمن أفكاراً خاطئة - اقراء الملاحظة جيداً

٢ · في المجتمع اللاطبقي : المسألة هنا تختلف اختلافا كاملا · اذ لا توجد فروق طبقية في الاشتراكية وكل شخص هنا ما هو الا واحد مـــن شغيلة المجتمع الحر ، ولا تتعارض مصالح اي شخص مـــع مصالح اي شخص من الآخرين فلا يقوم احـد بسحق غيره او استغلاله · وهكذا تلتقـي مصالـــح الجميع في نقطة واحدة ولا يخطر لاية مجموعـة ان ترغب في الانحراف نحو اليمين بينما الآخرون يريدون السير الى الامام لان احدا من افراد المجتمع ليست لـــه مصالح مختلفة عن مصلحة الجميع · والشخصان اللـــذان يجران العربة لا يعمل احدهما على جرها الى اليمين والآخر الى الامام بل يقوم كلاهما بجرها الى الامام ، ولذلك نرى ان العربة تسير الى الامام تماما · وهذا يعني ان ارادة الانسان الفرد في المجتمع اللاطبقي لا تختلف عن ارادة المجتمع· فحيثما يريد الناس الافراد جر العربـــة بحيث يكونون اكثر افادة في توجيه المجتمع فانهم يستطيعـون جرها دون اعوجاج ، ولا يخضع الناس في المجتمع الاشتراكي اللاطبقي ، لمجموعة من القوى العمياء التي تعرف باسم « القوانين الاجتماعية » رغما عنهم · وهكذا فان المجتمع

يكون حاكمـــا للافراد ومهيمنا عليهـــم في المجتمع الرأسمالي ، اما في مجتمع الاشتراكية فان الناس هم الذين يتحكمون في سير المجتمـــع وفـــق مصالحهم وحاجاتهم ٠

والخلاصـــة :

١ ـ يريد الانسان او لا يريد وفق اسباب **محددة** ، لا بصورة كيفية ٠

وهذه الاسباب : أ ـ امـــا ان تكـــون داخلية (فيزيولوجية) ٠

ب ـ او خارجية : ١ ٠ اما من الطبيعة ٠

٢ ـ او من المجتمع

٢ ـ هناك **حتمية** في الحوادث الاجتماعيـة وهي التي تعرف باسم « **القانون الاجتماعي** » ٠

٣ ـ هناك علاقة وارتباط بين **ارادة الانسان والحوادث** وهذه العلاقة هي :

أ ـ في المجتمع الطبقي : ارادات الناس تتصادم فالاحداث لا تجري كما يريدهـا الجميع ٠

بل يحصل نقيض الامر المرغوب فيه بعض الاحيـــان · وهنا **يكون المجتمع متحكما في مصائر الافراد ·**

ب ـ في المجتمـــــع اللاطبقي : ارادات الناس تتلاقى وتتحد ، كما ان ارادات الافراد هي ذاتها ارادة المجتمع · **وهنا يكون الانسان ممسكا بزمام امور المجتمع ·**

الجزء الثاني

التغيير

ان المسائل التي جرى عرضها في فصل «التفسير» اوردناها من اجل ايجاد الحلول المناسبة لها · ونحن نستطيع تقسيم القضايا الفكرية التي تحتاج الى حل وتغيير الى مجموعتين رئيسيتين :

١ · قضايا المفاهيم العامة ·
٢ · قضايا مفاهيم الدين والمجتمع بصورة خاصة ·

١ · المفاهيم العامة

هناك العديد من العقد الفكرية المستعصية والقيود اللفظية التي تكبل كلا من العامل والفلاح وتقف عثرة امام انطلاقته · مثل الصدفة والقضاء والحظ والحرية

والارادة الجزئية والارادة الكلية والثوريـــة والقدرية و ٠٠٠ الخ ٠

وهذه الالفاظ المعطرة التي تختلط فيما بينها كثيرا تجعل الانسان يتـربط في عالم الاوهـــام دون وعي منه لما يفعل ٠ لنتناول فيما يلي بعضا من هذه الالفاظ :

١ ـ **الصدفة والحظ :** هناك بعض الاحـداث التي تجري في المجتمع فلا يرى الانسان فيها سببا فيربطها بالصدفة او القضاء والقدر او الحظ او غيرها ٠ فهل مثل تلك الحوادث تجري دون اسباب ؟

الحوادث والصدف : يقفز احد عمـــال التبغ من الترام صدفة فيقع تحت عجـــلات السيارة القادمة من الخلف ويموت ، قضاء ، حادث ، اولا ، لماذا يقفز من الترام صدفة ؟ ذلك لانه كان قد ركب الترام دون ان يدفع اجرة ٠ وحالما رأى المفتش مقبلا نحوه قفز بسرعة قبل وقوف الترام ٠٠ ثم لماذا سقط تحت عجلات السيارة ؟ ذلك لان البلدية التي تجبي من الشعب كل ما يخطر ببالها من الاموال ، لم تفتـــح طريقا خاصـــا للسيارات مما يضطرها الى السير خلف الترامات ٠ ونتيجة للاسباب آنفة الذكر وقع الحادث ٠ فكل من العامـــل الذي القى بنفسه من الحافلة ، والسائق الذي اراد الخـروج الى الطريق لم يكن احدهما يعلم بالآخر ٠ وهـــذا يعني ان

حصول الحادث بالصدفة ليس دون سبب ، بل هو نتاج تعارض سلسلتين سببيتين من جهتين مختلفتين · ولا بد من تعارضهما · ولكن بما ان كلا من السائق والعامل لا يرى سوى سلسلة واحدة فانه يعتبر ما حدث (اي تعارض السلسلتين) محض صدفة · وهكذا نرى ان **الصدفة** ليست الامر الذي نجهل اسبابه **بصورة كاملة** ·

الحظوظ والاقدار : ارمي قطعتي النرد بيدي فيأتي دوشيش · فيقول النظارة الجالسون حول الطاولة: « انك لمحظوظ » لان الانسان لا يستطيع ان يأتي بدوشيش كلما اراد · غير ان هناك مقامرين محترفين يستطيعون ان يرموا دوشيشات كلما ارادوا · واذ ذاك لا نسمي دوشيشاتهم هذه « **حظوظا** » **بل « الوانا من الحيل »** · ولكن لماذا لا يستطيع كل لاعب ان يأتي بدوشيش في كل المرات ؟ لانه لا يقوى على ذلك · فالحظ والقدر الكامنان في الزهر ليسا سوى التعبير عن عدم القدرة على رمي هذا الزهر كما نريد · يبدو تناولنا للبندقية واصابتنا الطائر الملحق في الجو نوعا من الحظ او الصدفة ولكن الامر لا يحتاج في حقيقته الى ان نكون محظوظين حتى نصيب ذلك الطائر بل الى ان نعرف كيف نسدد بصورة صحيحة · وهذا يعني انه كلما تكاملت وسائل نضال الانسان تتحول الحظوظ والاقدار المقدرة والصدف الى انواع من « الحجل المسجون داخل

الجعبة » (مثل تركي) ·فليس الحظ والصدفة الا احد امرين : **اما عدم معرفة ، او عدم قدرة على المعرفة** ·

وهنا نواجه سؤالا يقول : هل كـــل الذين ندعوهم بـ « المحظوظين » « الموفقين في اعمالهم » في المجتمع اناس ذو معرفة وخبرة ؟ لا ، بالتأكيـد · لاننا ما زلنا نعيش في المجتمـــع الرأسمالي المبني عـــلى اساس الطبقات · فالانسان في ظل هذا المجتمع الطبقي عاجز عن الابتسام حتى ولو كان « مؤهلا للامساك بالعصفور الطائر باسنانه » (مثل تركي) ، ولهذا سببان :

١ · تسير الرأسمالية وفـــق دفع قوة عمياء تعرف باسم « **قانون العرض والطلب** » · فلو كان الفلاح ذا خبرة تؤهله لزراعة وانتاج أفضـــل انواع الدخان عالميا فان حظه يظـــل حالك السواد لان الدخان الذي ينتجه سيباع بأبخس الاسعار بسبب الازمة او احتكارية الشركات ·

٢ · تظل المعرفة في ظل النظـــام الرأسمالي ، مثلها مثل غيرها مـــن الثروات ، في احتكار الطبقات السائدة · ومهما كان ذهن العامل متقـدا ، ومهما كان ذكيا فليس عنده المال اللازم لاستكمال تعليمه · وحتى في حـــال توفـــر التعليـــم المدرسي فان الاشياء التي سيستعملها ، بعد القليل من العلوم المفيدة للقيام بتشغيل

المعامل ، ليست الا سلسلة مـــن الخرافات والاكاذيب البرجوازية ·· اذ لا يمكن للعامل ان يتلقى دروسا في العلوم والمواضيع التي تهمه ·

نتيجة للسببين آنفي الذكر فاننا نواجه في الرأسمالية حالات تعرف باسمـــاء : الحـــظ والصدفة والقضاء والبخت ··· الخ ··

٢ ـ **الحـــرية** : كل ما يفعله الانسان لا بد وان يكون ناتجا عـــن مجموعـــة من الاسباب الخارجية والداخليـــة · ونحن نقول بان كـــل شيء يحدث وفقا لقوانين محددة · وهكذا يكـــون الانسان اسيـــرا لتلك المجموعة من الاسباب والقوانين · فما هذا الشيء الذي نطلق عليه اسم « الحرية » اذن ؟

ان الحريـــة بالنسبة للبرجوازي **صنم** ليس الا · والناس مضطرون الى عبادة هذا الصنم على الرغم من انهم لا يعرفون ماهيته · والدستـــور التركي مثلا ، يقول : « يولد كل تركي حرا ويعيش كذلك » غير ان هذه الحرية مقيدة ذات اليميـــن وذات الشمال بجملة من القوانين · وبالنسبة لقانون الانتخابات مثلا فـــان « كل مواطن اكمل الحادية والعشرين من عمـــره حر في ان يمنح صوته الانتخابي لمن يشاء من المرشحين » غير ان

صنـــدوق الاقتـراح يكون محاصرا بالشرطة والدرك والمدنيين المأجورين المسلحين بالعصي ، كما ان مفتاح الصندوق يظل بأيدي موظفي القوى والطبقات الحاكمة· وهكذا يستحيل عليك ، انت ايها الناخـــب ان تعطي صوتك لمن تختاره ، ولو فعلت فان الذي سيفوز في نهاية فرز الاصوات هو مرشح الطبقات الحاكمة ·

لنورد مثالا آخر : كل مواطن حـــر في استكمال تعليمه في المدارس المتوسطة · غير ان احدى الجرائد مثلا « صون بوستا » تقـــول : « تقـــدم الى مسابقة الحصول على الكراسي المجانية في المدارس المتوسطة الداخلية ٢٢٩٩ تلميذا ، ونجح منها ١٢٣ تلميذا » وهذا يعني ان ٢١٧٦ تلميذا ظلوا في العراء · فأبناء الفلاحين والفقراء والعمال ، مهما بلغت درجة حريتهم ، محكومون بأن يظلوا جهلة لان ذويهـــم لا يستطيعون اداء نفقات الدراسة المتوسطة وتكاليفها ·

ولكن لهذه الحرية وجودا ايضا في مفهـــوم علم الطبقة العاملة (الماركسية ـ اللينينيـــة) · غير انها ليست صنما من جهة ، ولا دميـــة يتلاعب بها ابناء الطبقات الحاكمة من جهة ثانية ·· ان الحريـــة عندنا عبارة عن « ادراك الضرورات » اي فهـــم حتمية هذا الشيء او ذاك · فاذا ادرك العامل ، على سبيل المثال ، ان خلاص طبقته لا يكون الا من خلال حرب هي الحرب التي تطلق عليها اسم «الثورة» وانه لا بد من وجود حزب

اشتراكي يكون بمثابة هيئة الاركان لتلك الحرب .حيث تقوم بتنظيمها وادارتها والتخطيط لمعاركها ، نقـول اذا ادرك العامل كل هـــذا وانتسب الى هـــذا الحزب الاشتراكي فانه يخضع لانضبـاط الثورة الحديدي عن طيبة خاطر · ولكن العامـــل نفسه ، عندما يتعرض لاشكال الاوامر والنواهي الفارغة في جيش البرجوازية الـذي جـــرد لسحـــق الشعـــب ، فانـــه يحس بأن الانضباط العسكـــري اسوأ مـــن الاسر والسجن بكثير · فاذا كان هناك اجتماع حزبي يوم الجمعة في بيت مظلم ، فسأذهب الى هذا الاجتماع بدلا من التجول في الهواء الطلق · ولكن اذا سجنني البوليس في احد الاقبية المظلمة ذلك اليوم دون توفـــر ضرورة حضور الاجتمـــاع فان حريتي تكـــون قد طارت من بين يدي واصبحت اسيرا مكبلا ·

يظل افراد الطبقة المحكومـــة الدنيا اسرى دائما! في المجتمع الطبقي · كمـــا ان الجميـــع في المجتمع الرأسمالي ليسوا سوى عبيد للقوانين العميـــاء مما يحيل الحرية الى مجرد كلام فارغ · امـــا في المجتمع الاشتراكي الذي يدرك فيـه الانسان كـــل الحتميات الطبيعية والاجتماعيـــة ، فانـــه يصبح ممسكا بزمام المجتمع ، ليغدو بعد ذلك حرا طليقا ·

٣ ـ **الثورية والقدرية** : ربمـــا تصدى لنا احد البرجوازيين قائلا : « **انتم معشر الاشتراكيين** ، امركم غريب ، فمن جهة **تقولـــون** : **ليس** وراء الاشياء او الحوادث غايات **بل اسباب وتؤكـدون** على ان المجتمع لا يسير **وفق ارادة احد** بل وفق **قوانينـه** الخاصة ، ثم تأتون **من** الجهة الاخرى ، لتؤسسوا **الاحزاب التي** تهدف الى **الاشتراكية** · وفي سبيل هـــذه **الغاية** تتعرضون للتعذيب **والملاحقة** وحتى المـوت ولا **تتراجعون** فيه قيد شعرة **عن الاستمرار في** العمل **من اجل** تلك الغاية ·· فما **هذا اللغز العجيب** ؟ **تنفون وجود الغاية** من جهة ، وتدفعون **ارواحكم** ثمنا لاحدى **الغايات من** جهة ثانية · تزعمون **ان** الثورة قادمة لا ريب فيها ، **اتركوها** تصل · إستم **انتم** تصنعون **قوانيـــن** المجتمع ·· واذا كانت الثورة **ستندلع** فلن **تستشيركم** · لماذا ، **اذن** ، تضحون بأرواحكم دون مقابل ؟ و ··· الخ »

ان هذا المنطق الرأسمالي هو عيـن نمط التفكير البرجوازي الصغير المستند الى شعار « يصطفلوا » وهو منطق المدرسة المعروفة باسم « القدريـــة » · اما نحن فاننا نملك نظرتنا « الثورية » التي هي على النقيض من القدرية · **وهذه النظرة الثورية تقول** :

١ · وراء **كل الحـــوادث** أسباب لا غايات · وعندما **ترتبط الاسباب بعضها** ببعض تؤلف القانون ·

واذا ما عرفنا القانـون الذي يحكـــم امرا ما، نكون مؤهلين للقطع فيما سيصل اليه ذلك الامـر · وهذا هو ما يدعى بالنظرة المستقبلية او التنبؤ في العلم · وهكذا نجد ان لا وجود للغاية من « الناحيـــة النظرية » اما الشيء الذي يعرف باسم « الغاية » « علميا » فهو هذه النظرة المستقبلية ، او هذا التنبؤ ·

تصيب الصاعقة مدخنة المعمل · واذا عرفنا ذلك نضع لانفسنا هدفا هو حمايـــة المدخنة من الصاعقة مسبقا فلن نقف مكتوفي الايدي ازاء الصواعـق ولكن نسعى لايجاد مانعة صواعـــق (باراتونبر) · لا بد للرأسمالية من الوصول الى الثورة الاشتراكية شاءت ذلك ام ابت ، والطبقة العاملـــة التي تقـــف على هذه الحتمية بصورة مسبقة تضع الثورة «غاية» و « هدفا » لها وكل الطبقات والفئات والافـراد التي تعرضت لظلم المجتمع البرجوازي وعانت مـــن صراعاتـــه العمياء والعقيمة ، تستفيد من رؤية الاشتراكية بصورة مسبقة ، واكثر هؤلاء المتنبئيـــن استقامـــة وجـرأة يجعلون الاشتراكية هدفهم الثابت ·

من الممكن حساب الامـور في الحوادث الطبيعية بصورة مسبقة بشكل دقيق مئـــة بالمئة ، فنحن قادرون على تحديد الشهر واليوم بل والساعة من العام القادم

لكسوف الشمس · غير ان المسألة في المجتمع تكون على شكلين :

(أ) في المجتمع الطبقي : يمكن القطع بأن امرا ما سيحدث ولكن ليس مع اعطاء التواريخ والارقام كاملة ··· فقد قال لينين مثلا ، وذلك قبل الحرب العالمية الاولى ، بأن الثورة الاولى يمكن لها ان تحدث في روسيا مما جعل كل البلاشفة يضعون الثورة هدفا لهم · اما ان هذه الثورة البلشفية ستحدث في صباح السابع من تشرين الثاني لعام ١٩١٧ فلم يستطع احد ان يجزم به ·

(ب) في المجتمع الخالي من الطبقات : يمكن الحسم في كل الامور تقريبا وبصورة دقيقة مئة بالمئة · ذلك لان هذه الامور ليست متروكة على هواها ، بل انها تجري وفق خطط محددة · فعلى الرغم من ان الاتحاد السوفييتي لم يصل بعد الى مرحلة المجتمع الخالي تماما من الطبقات ، فانه ، عن طريق الخطط الخمسية ، يستطيع ان يتنبأ بمقدار الزيادة السنوية في انتاج القمح ، والاجور وصناعة الجرارات مثلا بصورة تكاد صحيحة · اما في الجهة المقابلة ، في المجتمع الرأسمالي فنرى ما يلي : تحدث رئيس الولايات المتحدة في حزيران ١٩٢٩ عن ان المعامل في بلاده ستنتج ضعف ما كانت

تنتجه ، غير ان نصف هذه المعامل توقف كليا في شهر تشرين الثاني ، وكان الاشتراكيون قد تنبأوا سلفا بهذه الازمة ٠

٢ ٠ طالما يمكن وضع هدف او غاية من الناحية العملية بعد ان نرى ، سلفا ، القوانين التي تحكم سير الحوادث على الرغم من عدم وجود اية غاية في حصول هذه الحادثة او تلك ، يغدو النضال والصراع في سبيل تحقيق ذلك الهدف وبلوغ تلك الغاية العملية امرا محتما ٠ والثورة الاشتراكية آتية لا ريب فيها ، عاجلا ام آجلا ٠ ولكن هذه الثورة لا تصنعها القرود او الماكينات ، بل يصنعها الناس ٠ يقال لنا : «هل هناك من يؤسس حزبا سياسيا من اجل خسوف القمر ؟ » لا حاجة لان يذهبوا بعيدا الى هذه الدرجة ٠ فالانسان قد بدأ يتحكم بقوانين الطبيعة ، ومن الامثلة على ذلك ان ذالية العنب التي لم تكن تثمر الا مرة واحدة في السنة اصبحت بفضل تحكم الناس بقوانين الطبيعة تثمر مرتين او ثلاث مرات في السنة ٠ ويقول الفيلسوف الانكليزي « بيكون » : لانستطيع اخضاع الطبيعة لاوامرنا ، دون الرضوخ لما تقوله قوانينها ٠٠ وهذا يعني ان الامساك بزمام الطبيعة يكون عن طريق الرضوخ لقوانينها ٠ والامر في المجتمع مماثل تماما لما قلناه بصدد الطبيعة ، اذ يكفي الرضوخ لقوانين المجتمع

والقبول بها حتى نكون مؤهلين للسيطرة على هذا المجتمع وللامساك بزمامه • وقد توصل الاشتراكيون الى معرفة القوانين المادية للمجتمع فوضعوا نصب اعينهم هدف السيطرة عليه والامساك بزمامه من خلال القبول بتلك القوانين وفهمها • فكما يجري بذل الجهود من اجل انزال المطر ، لا بد من التضحية بالارواح والدماء وبذل الطاقة ، ولا بد من ممارسة العنف والشدة لتحقيق الثورة • ولكل هذا فنحن لسنا مثل خونة الاشتراكية من الانتهازيين ومتصوفي البرجوازية قدريين نتربع على الارض لنستمطر اللعنات على اقدارنا السوداء ، بل نحن ثوريين نناضل ونقاتل من اجل تهديم سلطة رأس المال المالي المضاربة والفوضوية ، وفي سبيل اعلاء بنيان المجتمع الاشتراكي ، هذا المجتمع الذي يتم بناؤه من قبل الانسان الذي يديره ويشغله بصورة منتظمة كانتظام دقات الساعة ، ونحن في عملنا هذا كله نستند الى القوانين المادية لا الى الاوهام والخيالات •

ب ـ موضوع الدين

يزيد الانسان من معارفه وابحاثه بغية الافادة منها • والعلوم هي التي تعالج هذه المعارف والابحاث، غير ان هذه العلوم لا تتناول الا مجموعة محددة من الابحاث • اما عملية استخلاص النتائج العامة من جميع الابحاث والعلوم وتحويلها الى نوع من المذهب

او العقيدة او المنهج ، من جهة ، ثم الاجابة على الاسئلة التي لا يعالجها اي من هـذه العلوم ، من جهة ثانية ، فيقوم بهما شيئان يجمعان فتاتهما وينظمانها · وهذان الشيئان هما : الدين والفلسفة ·

فما الذي يقوم به الدين · انـــه يؤدي الوظيفتين التاليتين :

١ ـ **يجيب على المسائل العامة :** فلو سألناه مـا سر الوجود · لاجابنا : انه الروح التي هي خـارج قوة الطبيعة والانسان وفوقهما · وكـــل ما عدا ذلك كذب وخداع ··

٢ ـ **يحدد منهج الابحاث العلميـــة :** لننظر الى المثالين التاليين :

أ ـ سيقول « ان سبب كل شيء هو الله او الروح» · فالشمس تشرق لان الله اراد اضـاءة وجـه الارض ، وتغيب لانه اراد تعتيمه · وما ظهور النجوم في السماء ليلا الا لان الاف الملائكة سارعوا مع غياب الشمس الى اخراج فوانيس تشبه قناديل الكاز من الجنة وعلقوهـا في كبد السماء ·· الخ ·

وبعد سماع ما يقوله الدين حول هذه الامور هل نكون قد عرفنا ماهية الليل والنهار والنجوم · طبعا لا · وما الذي ينبغي عمله حتى نعرف الحقيقة · ينبغي توجيه تلسكوباتنا الى السماء لنراقب ما يحدث · وعندئذ يتأكد لنا بان الليل والنهار ما هما الا نتيجة لدوران الكرة الارضية حول نفسها · كما ان النجوم والكواكب موجودة في السماء ليلا نهارا ، وعدم رؤيتنا لها خلال ساعات النهار ناتج عن زوغان عيوننا من نور الشمس الزائد لا لانها اعيدت الى كواليس الجنة ··

(ب) ويقول الدين : « كل شيء في العالم هو دون حركة » « والكون هو هو دون اي تغيير منذ وجد ، ولا يظهر التغيير ، اذا كان سيظهر ، الا يوم القيامة والخ» ولذلك فعندما يكشف احد العلماء ذات يوم عن دوران الارض ، يراد احراقه بالنار بحجة ان عقله اصبح موئلا للشيطان ·

فلماذا ظهرت هذه الافكار الغيبية التي تتناقض مع معارف الانسان الحالية الى هذه الدرجة من التناقض ، وكيف · ولماذا تتحول الان الى افكار تبعث على الرثاء، ثم تتراجع وهي تخلي مواقعها موقعا بعد الاخر ·

ميلاد الدين وتطوره

لننظر الان الى المراحل المتعاقبة التي مر بها الدين منذ اول المجتمعات البشرية حتى اليوم ٠

ـ في مجتمع المشاعية البدائية : في هذا النمط من المجتمعات لا وجود لاناس يعملون وآخرين يصدرون الاوامر، فلا يعرف الناس شيئا اسمه الروح، ولا يعبدون اية قوة ٠ وهؤلاء الناس لا يفرقون بين اجسادهم وبين الصخور والاشجار ، حيث يكونوا مؤهلين لان يفترضوا وجود ارواح مستقلة عنهم وعن ذواتهم ٠ فلا وجود للدين عند هؤلاء ٠

ـ في مجتمع المشايخ والكهنة : كلما زادت الالات وزاد بالتالي الانتاج ، ظلت الاكثرية مستمرة في العمل، بينما راحت اقلية من افراد المجتمع تزاول الاعمال الادارية ٠ لقد كان من المستحيل في السابق ان يتفرغ احد للاعمال الادارية وذلك لعدم وجود انتاج فائض يكفي ذلك الاداري او الموظف المتفرغ ٠ ومع مرور الزمن قام الاداريون بتطوير شؤون المجتمع كلها وتخطيطها ، حتى ظن الاخرون بانه لا حياة للمجتمع بدونهم، اي بدون هؤلاء الاداريين المتفرغين ٠ وراح هؤلاء يعرفون باسم

المشايخ والكهنة · ومنذ ذلك التاريخ انقسم المجتمع الى نوعين من البشر :

١ ـ اقلية صغيرة ترتب الامور وتصدر الاوامر ، ولا يجري القيام باي عمل دون استشارتها فكل الناس يسيرون على الطريق الذي تحدده تلك الاقلية لهم· وهذه الاقلية مؤلفة من المشايخ والكهنة الذين هم بمثابة روح المجتمع· ويظن الناس بان المجتمع هالك لا محالة بدونهم·

٢ ـ بقية الناس الذين ينصرفون الى العمل وفق الطريق الذي حدده الكهنة والمشايخ ، دون ممارسة اي تفكير كما لو كانوا آلات · فلو مات واحد او خمسة عشرة من هؤلاء الذين يعملون ولايفكرون ، لما تأثر المجتمع بل بقي كما هو · اما اذا مات الكاهن او الشيخ فجأة فلا بد للمجتمع حينذاك من ان تتعرض لدارته للفساد والاختلال، ويتعرض المجتمع نفسه للتبعثر والانقراض · والناس الذين يقفون على هذه الحقيقة لا يسعهم الا ان يعتبروا الكاهن او الشيخ روح المجتمع ، ويعتبروا الاخرين مادته التي لا حياة فيها ·

لنتذكر الان احد امزجة الانسان : فهو مخلوق عجيب يظن ان جميع الكائنات الاخرى مشابهة له ، فاذا كان حزينا وجد الدنيا سجنا ، ولو هطلت امطار في تلك اللحظة لاعتقد ان الطبيعة تشاركه حزنه وتبكي عليه ·

اما اذا كان سعيدا فستتراءى له الصخور والجبال ضاحكة · وهذا يعني ان الانسان ميال الى ان يسقط ما يحس به على الكون ·

ومع انقسام الناس الى نوعين احدهما كاهن او شيخ ، والاخر عادي بدأ الانسان يسقط الوضع ذاته على الصخور والجبال والاشجار· فمثلما يكون الوجود الاجتماعي للمجتمع منقسم الى روح ومادة فلا بد لكل من الانسان والحجر والشجرة من مادة ملموسة مرئية من جهة ، ومن روح خفية تدير تلك المادة من جهة ثانية·

واستنادا الى ما سبق ذكره فقد وجد في مجتمع المشايخ والكهنة شكلان متميزان للدين :

١ ـ عبادة الاجداد : ان الشيخ هو الروح المدبرة للمجتمع ، وللانسان ، مثله مثل المجتمع والحجر جسد (مادة) وروح · ويكون الكاهن ، اثناء حياته ، رجلا قويا جدا ، اما بعد موته فتنفصل الروح عن الجسد ، ولكن هذه الروح لا تزول ، بل من المؤكد انها تزور جسدها السابق بين الحين والاخر ، وهي لا تبتعد كثيرا عن مضارب المجتمع ، مما يوجب عدم استثارتها بل واحترامها وتقديسها مثلما كانت اثناء حياة الكاهن او الشيخ ، حتى تصل الامور الى درجة عبادة تلك الروح التي تدبر شؤون المجتمع · وهكذا تقوم العشائر بدفن

اجدادها (المشايخ والكهان) الذين يموتون داخل البيوت ثم تشرع في عبادتهم ، ومثل هذه العبادة تعرف باسم «عبادة الاجداد» ٠

٢ ـ **الحيوية :** (الانميزم) : اما الشكل الثاني من اشكال ديانة مجتمع المشايخ والكهنة فقد نتج عن اعتبار الانسان للجبال والحجارة و٠٠٠ التي نعتبرها في وقتنا الراهن دون حياة ، ذوات ارواح ٠

والخلاصة هي ان الفكرة الاولى للدين تولدت عند الناس مع انقسامهم الى طبقتين ٠

أ ـ تعدد الالهة

مع مرور الزمن يتحدد لكل عشيرة او قبيلة صنم خاص تعبده ٠ ومع ازدياد العلاقات والصلات بين القبائل تأخذ هذه القبائل في تبادل الالهة والاصنام ، وذلك مع تبادل الاشياء والناس (العبيد) وعلى الرغم من ان مبادلات العشائر المتنقلة تكون بالصدفة ومؤقتة في البداية ، فانها ، مع مرور الزمن ، تميل الى ان تتوضح وتتجمع في نقاط محددة ٠ وهذه الاماكن التي تحددت وتركزت من جراء مبادلات القبائل والعشائر تأخذ اسم : (الاسواق) التي تكون مؤقتة حينا فتدعى بالمعارض ، او مراكز مطروقة بصورة دائمة حينا اخر لتصبح بالتالي مدنا ٠ وفي الزمن القديم تم بناء واحدة من هذه المدن عند كل نقطة من نقاط التقاء الطرق التجارية ٠ والقبائل التي هي صاحبة كل من هذه المدن

تكون اشد بأسا وقوة من سائر القبائل الاخرى المضطرة الى اجراء مبادلاتها هناك · وكلما قامت القبيلة القوية بالحاق الهزيمة بالقبائل الاخرى كانت تأسر آلهتها واصنامها وتحملها معها الى المدينة · فقد كان الرومانيون القدامى يجمعون اصنام الاقوام الاخرى التي يهزمونها وآلهتهم في البانثيون حتى لا تمارس هذه الالهة اي تأثير ضار عليهم · وكان عدد الاصنام والالهة يتزايد باستمرار من خلال هذا التجميع · وهكذا ، فمع انه كان لكل قبيلة صنمها الخاص في السابق فاننا نجد العديد من الاصنام التي كان يعبدها العديد من القبائل والعشائر المحيطة بالمدينة وقد ملأت البانثيون · وقد عرف الدين الذي نشأ بهذه الصورة باسم : **الديانة ذات الالهة المتعددة** ·

ب ـ التوحيد

كان ازدياد قوة احدى القبائل والحاقها الهزيمة بالعديد من القبائل الاخرى يعني ان القبيلة الظافرة تجمع القبائل المهزومة المبعثرة حولها · اما الكهان الذين كانوا يدبرون شؤون هذه القبائل المهزومة فانهم يصبحون اتباعا لكاهن القبيلة المنتصرة او شيخها · ومع مرور الزمن صار هذا الكاهن او الشيخ الذي ارتفع فوق كهان ومشايخ القبائل الاخرى يعرف باسم الخاقان او الخان (اي الامبراطور او الملك) · وعن هذا الطريق نشأت في المجتمع الممالك المستبدة التي استندت الى فكرة تقول

بان الكاهن او الشيخ الذي غدا امبراطورا هو مالك كل شيء وكل شخص · ثم حصل الشيء ذاته بالنسبة للآلهة والاصنام · فالعشيرة التي اصبح شيخها او كاهنها امبراطورا او ملكا اصبح صنمها ايضا ، شيئا فشيئا ، امبراطورا او ملكا لباقي الاصنام المتساوية · ولقد غدا صنم او اله بابل بعد ان سيطرت على باقي مدن ما بين النهرين ، الها لجميع الاصنام او الالهة الاخرى · فكما ان هناك العديد من الامراء قد اصبحوا تحت امرة الامبراطور او الملك فكذلك ظهرت آلهة او اصنام صغيرة من الدرجة الثانية والثالثة و··· الخ تحت امرة الاله او الصنم الاكبر والرئيسي · وهذا يعني ان صنما واحدا من مجموعة الاصنام اخذ يبرز ويسيطر مع مرور الايام ·

ومع اشادة الامبراطوريات المترامية الاطراف والممالك الواسعة صارت المبادلات التجارية التي لم تكنفي السابق لتتجاوز الصلات البسيطة بين الاقوام والقبائل المبعثرة ، اكثر اتساعا وانتظاما · وعلى الرغم من ان الامبراطور او الملك ظل الى ذلك الحين هو الامر الناهي في كل الامور فانه راح يكلف امراءه ببعض الاعمال التجارية المناسبة شيئا فشيئا لان ادارة الامبراطورية الواسعة كانت تستلزم المال ، والتجارة هي انسب الطرق للحصول على المال · وهكذا فبالرغم من ان الملك او الامبراطور بقي حاكما مطلقا في المجتمع في السابق، فانه مع تقدم التجارة وتطورها ظهر على المسرح قانون تبادل

يخضع لاحكامه حتى الامبراطور نفسه · وهذا القانون هو القانون الذي يعرف باسم قانون العرض والطلب او قانون السعر ·

وقانون العرض والطلب هذا ليس شيئا يلمس باليد او يرى بالعين ، غير انه «حاضر ناظر» في كل زاوية من زوايا المجتمع «يرى النملة على الصخرة الدكناء في الليلة الظلماء» · وهذا القانون ينشأ من علاقات التبادل بين الناس ، غير ان احدا من هؤلاء الناس بمن فيهم الملك او الامبراطور لم يكن يستطيع ان يضع السعر في القالب الذي يريده داخل حدود المجتمع · وهكذا فلو جرى صعود او هبوط مفاجيء للاسعار لانقلبت خزانة الملك رأسا على عقب ، ومن الطبيعي انه عند خراب خزينة الملك ينقلب هو نفسه رأسا على عقب · وهذا يعني ان قانون العرض والطلب او قانون السعر هو القانون الذي يخضع لحكمه كل افراد المجتمع بمن فيهم الملك · اما في الماضي ، وقبل تطور التجارة وظهور هذا القانون ، فقد كان الكاهن او الشيخ او الملك هو الذي يخضع لحكمه سائر افراد المجتمع ·

ولذلك نرى ان آلهة الناس كانت في السابق مثلها مثل شيوخهم او كهانهم ذوات لحى وجبة و··· ملموسة باليد ومرئية بالعين · اما الان فقد اصبح **السعر** هو الحاكم المطلق ، وهو موجود في كل مكان ، غير انه طاقة لا تراها العين ··· مما يدفع الناس الى ان يبدأوا الحديث عن قوة

خفية بمصائرهم، تعود في رأيها الى القضاء والقدر، هي فوق الاصنام العادية التي كانت تملأ الكعبة التي بلغ عدد اصنامها ـ ٣٦٠ ـ صنما · فعندما ازدهرت تجارة مكة مع كل من بلاد الشام والهند ازدهارا كبيرا ظهر محمد من صفوف قبيلة قريش المتخصصة بالتجارة ليعلن قائلا:ان الله ليس متعددا تراه العين مثل هذه الاصنام ، بل هو اله واحد احد ، لا تراه العيـــن ، وسارع الناس الى تأييد هذا الكلام ، فظهرت الديانة الاسلامية التي هي اكثر الديانات الموحدة كمالا ·

ج ـ الديانات الموحدة

لننظر الان الى الديانات الموحدة المعروفة التي تؤمن باله واحد ، فنجد ان الله في نظرها هو سلطان الكـون كله · وما يمثله السلطان (الامبراطـــور او الملـك) في المجتمع ، يمثله الله في الكون · فهو صاحب كـل شيء والقادر على كل امر · فللملك جيوشه ولللـه ملائكتـه ، للملك زنزانته ولله جهنمه ، لدى الملك جنائنه الخضراء ، وعند الله الجنة ، وهناك الجواري والغلمان في بـــلاط الملك ، كما توجد الحوريات والغلمان في الجنة ، للملك وزراؤه ولله نظاره الاربعة :

١ ـ عزرائيل قابض الارواح (وزير الحربية)
٢ ـ جبرائيل ناقل الاخبـار وزير الخارجية والبريد والبرق)
٣ ـ ميكائيل متعهد المطر والزرع

(وزير الزراعة والاقتصاد)

٤ ـ اسرافيل نافخ الصور يوم الحشر (وزير العدل)

والخلاصة ان الملك والاله متشابهان تماما · ولم يكن لمثل هذا الاله وجود في الديانات السابقة (حيث ساد تعدد الآلهة والاصنام) ولم تتجل في مخيلة الناس صورة الاله الشبيهة بصورة الملك الا بعد نشوء الممالك والامبراطوريات العظيمة على وجه الارض (مثل نمرود بابل وفرعون مصر) ، وبعد ظهور الملوك المستبدين · وبعدما شهد الانسان ظهور الحكام الذين تحولوا الى آلهة على وجه الارض ، راح ينشر فكرة وجود مثل هذا الحاكم المطلق (الامبراطور) كلي القدرة لكل الكون ·

كان يطلق على السلطان العثماني اسم «ظل الله على الارض» · ومن المعلوم ان الشيء نفسه يوجد ثم يظهر الظل · غير اننا عندما ننظر الى التاريخ المألوف الذي يعرفه الجميع نجد ان ظهور الملوك المستبدين كان سابقا على نشوء فكرة الاله الواحد · ولم تظهر هذه الفكرة الا بعد تأسيس الامبراطوريات والممالك العظيمة · وهذا يعني ان الامبراطور او الملك ليس هو الظل بل الله · وبوسعنا ان نقول دون خشية الوقوع في الخطأ بان الله هو ظل الملك في صفحة السماء ·

ولو شبهنا صفحة السماء بالمرآة لاستطعنا تشبيه فكرة الله وغيرها من الافكار الدينية بصور الاحداث الجارية على سطح الارض والمنعكسة في تلك المرآة ، الى

درجة اننا نجد فيها كل ما هو موجود على الارض · حتى ان الصراع الطبقي يتجلى في صفحة السماء مثلما هو حاصل على الارض · ونحن نعلم ان المجتمع الذي اوجد الدين مجتمع طبقي · ففي الارض يقوم الملك وجيوشه بسحق الجماهير الفقيرة المظلومة المتمردة ، وفي السماء نجد ان «الله» مع ملائكته دائب على ملاحقة الشياطين · غير ان آلهة الارض عاجزة عن القضاء قضاء تاما على الناس المظلومين وانهائهم ، كما ان سلطان السماء عاجز عن انهاء الشياطين والاجهاز عليهم حتى يوم القيامة · علما ان الشياطين كما لو كانوا اشتراكيي السماء ، لا يتجاوز عددهم اصابع اليد ·

٢ ـ الواقع الراهن للدين

نعيش الان في المجتمع الرأسمالي ، والطبقتان الرئيسيتان في هذا المجتمع هما :

١ ـ الطبقة الرأسمالية ٢ ـ الطبقة العاملة ·

تعتمد الطبقة الرأسمالية على رأس المال الذي يتصف بثلاث ميزات :

أ ـ ان يكون العوبة ، هو وصاحبه ، بين يدي قانون العرض والطلب : فالنظام الرأسمالي غير المنظم بدقة يخضع لقوانين عمياء تعمل على هواها ولا يستطيع وعي الانسان او عقله انيتحكم بها او يسيطر عليها · فملياردير اليوم «كرويكر» هو نفسه المفلس المنتحر بمسدسه غدا · وما تعنيه عبارتا القضاء والقدر عند الصوفي هو نفس

ما تعنيه عبارة الحظ عند البرجوازي (صاحب رأس المال)

(ب) ان يكون صاحب رأس المال مسوقا الى تصديق الخرافات بسبب انقطاعه عن العمل المادي : وقد كان اوائل الرأسماليين ، عندما كانوا نشيطين واصحاب مبادرات ، على علاقة بالانتاج الى هذه الدرجة او تلك ، اما في الوقت الراهن ، وبعد ان تأسست الشركات المساهمة ، فقد اصبح رأس المال مرة والى الابد «اسما بلا جسم» ، مجرد قيمة ، اذ تحول الى نوع من السند · فلم يبق لدى الرأسمالي اي جانب مادي سواء في رأس المال ام في الانتاج · وهو يحصل على الارباح بفضل رأس مال لا يعرف اين تم توظيفه ، ودون ان تنزل من جبينه قطرة عرق واحدة · ان هذه الارباح تأتيه كما لو كانت قادمة من الهواء ·

واذاك ، فانه يؤمن ، مثل سفهاء المقامرين او مثل «بني اسرائيل» منتظري الحلوى النازلة من السماء ، بان القوى الخفية والحظ هي التي تتحكم بالمجتمع ، ولا اهمية مطلقا للمادة · وهكذا نرى ان الرأسمالي مؤهل ليؤمن « بالمعتقدات الباطلة » دونما تردد ·

جـ ـ تشغيل الاخرين وسرقة نتاج جهودهم : ان الرأسمالي الذي اكتسب للاسباب الواردة سابقا استعدادا للايمان بالغيبيات ، يجد ان ايمانه هذا متفق مع مصالحه ايضا لانه يمارس الاستغلال ومن اجل دفع الطبقة العاملة الى تصديق فكرة «ان الفقر والغنى من القوى الخفية » ،

ورأس المال بريء من كل اثم ٠ ينبغي على الرأسمالي ان يتظاهر بانه مؤمن بهذه القوى الخفية ٠ ولذلك نجد حتى اكثر البرجوازيين علمانية وعصرية ينتهزون كل الفرص المتاحة لنشر الافكار الغيبية بين افراد الشعب ٠

٢ ــ أما حياة الطبقة العاملة فانها تعتمد على قوة عملها ، وهذه الطبقة تمتاز بثلاث صفات رئيسية هي على النقيض من مميزات رأس المال :

أ ــ يدفع العمل المادي العامل الى ان يصبح ماديا : فالمعمل ليس الا مجموعة من الاجهزة والالات التي صنعها الانسان حتى اخر برغي منها ٠ وهي اجهزة محددة الحركة ، كما ان انتاجها محسوب سلفا ٠ ويدرك العامل من خلال تشغيله للآلة ، لتأدية العمل المطلوب منها ، وبالقدر الذي يريده ان لا دخل لاية قوة خفية في عمل الانسان ٠ واذا ما عرف الاسلوب الملائم فانه يستطيع السيطرة على كل قوى المياه الجارية والسحر والصواعق و ٠٠٠ الخ لاقتيادها كالخراف ٠ اما الفلاح فطوال بقائه محروما من استخدام الالات الحديثة الزراعية ، يظل على الرغم من تعامله مع الانتاج المادي ، واقعا تحت رحمة قوى الطبيعة الغاشمة كالسيول والاعاصير والجفاف والصواعق الخ مما يجعله عاجزا عن الوصول الى مستوى وعي العامل الذي يعرف كل اسرار الالة في انكار اسطورة القوى «الخفية» ٠

ب ــ يبحث العامل عن اسباب قوانين العرض والطلب

العمياء : ان اجر العامل الذي ادرك ان وراء كل شيء سببا ماديا ، وحتى ظروف حياته ، ان اجره يهبط ويصعد وفق قوانين السوق العمياء حسب الازمات · ولكن العامل لا يبحث عن اسباب هذا الهبوط والصعود بين الغيوم وفي دهاليز الحظ وعند القوى الخفية ، لا سيما وان الانسان اشرف المخلوقات بسبب كونه عاقلا، وبفضل تربيته المادية الحتمية التي اخذها من العمل ، يبحث هذا العامل عن سبب كل مصيبة تصيبه في النوابض الداخلية للمجتمع ، ويجدها هناك · وهو لا يتذرع بالقوى الخفية ولا يلتفت الى اشكال اللغو المثالية ·

ج ـ يتعرض العامل للاستغلال : ان الطبقة العاملة المؤهلة لان تفهم الاسباب المادية الكامنة وراء الهموم الاجتماعية ، نتيجة لما سبق ذكره في الفقرتين أ وب، ترى ان مصلحتها تقضي بكشف حقيقة تلك الاسباب ثم تكنيسها من الوجود ، لذلك تعتبر الطبقة العاملة الافكار الغيبية والايمان بها نوع من العلاج الذي يستخدم لتسكين الالام · وهي اقل احتياجا من الفلاحين لمثل هذا العلاج المهدىء للاوجاع ·

ان الرأسمالية كلما تقدمت تتعرض طبقة الرأسماليين للتضاؤل ، بينما الطبقة العاملة تزداد بمقدار ما تهترىء وتتآكل الطبقات الاجتماعية الاخرى كلها · وهكذا نجد ان الطبقات المتشبثة بالافكار الغيبية تتضاءل يوما بعد اخر، بينما الطبقة العاملة المادية حتى العظم تزداد عددا ·

وبعبارة اخرى نقول : ان اسس المعتقدات الباطلة دائبة على الاهتراء ، ولا بد من الزوال والانطفاء « كقنديل نفد زيته » ٠

والان ، شئنا ام ابينا ، وسواء اكنا غيبيين ام لا ، تجدنا امام واقع اهتزاز الافكار الغيبية في كل مكان ، ونحن لا نستطيع التظاهر بعدم رؤية هذا الواقع ٠ اذ لم تبق اية حاجة تدعو الى اعتناق مثل تلك الافكار الغيبية الا عند جماهير شعوب البلدان المتخلفة الفقيرة ٠ وهذه الجماهير محقة في تمسكها بها ، لانها اسهل علاج في مواجهة آلام ومآسي الحياة الكثيرة ٠

وعندما شبه ماركس الدين بالافيون كان يفكر بخواصه المهدئة للاوجاع فكما ان الطبيب لا يجد علاجا ناجحا سوى الافيون والمورفين من اجل وقف الآلام الشديدة التي تصاحب امراض السرطان والقلب ، كذلك تماما فان الشعب لا يجد وسيلة تمكنه من تحمل اوجاع الحياة وآلام اشكال الاستغلال التي يعاني منها بشدة سوى الامل في نصرة الغيبيات والقوى الخفية التي يسبغ عليها هالة من القدسية ٠

ولكن استخدام الافيون كعلاج شيء ، واستعماله للادمان عليه شيء اخر تماما ٠ فالمورفين الذي يستخدم بحكمة ، ينقذ حياة مريض القلب ٠ اما المورفين الذي يستعمل للادمان على تعاطي المخدرات فيتحول الى نوع من المرض العضال، بعد توفير قليل من الانتشاء المصطنع،

ثم يجعل المدمن اسير اوجاع لا تطاق حتى يموت ٠

ليس الهدف من تظاهر الطبقات العليا باعتناق الافكار الغيبية الا نوعا من المصيدة التي نصبت من اجل تعويد الشعب المعافى على عادة تعاطي الافيون لتخديره، ثم استثماره بسهولة ٠ وفي القرن التاسع عشر شن الرأسماليون الغربيون الذين كانوا يريدون فتح اسواق الصين بغية نهبها ، حربا دنيئة عرفت باسم « **حرب الافيون**» ثم اخذوا يبيعون الافيون بالقوة وراحوا يتبعون مختلف الوسائل والحيل لتعويد الناس على تعاطيه، حتى حولوا مئات الملايين الى مدمنين على المخدرات ، وبعد ذلك صاروا يمرون امام الصينيين الذين فرضوا عليهم تعاطي المخدرات ليسخروا منهم ٠ واشكال الاتجار بالافكار الغيبية في يومنا هذا ، ومن قبل الافندية والبيكوات الذين لم يعرفوا طوال حياتهم اي معنى لها شبيهة تماما بعملية قيام الاوربيين ببيع الافيون للصينيين وهي حرب دنيئة ، وعداء للشعب مفضوح ٠

ان الطبقة العاملة لاتعادي الدين لانها لاتعادي الشعب فهي الشعب ذاته ، وتحمل الطبقة العاملة اكبر آيات الاحترام ازاء العواطف الدينية النظيفة الصادرة عن القلب ، والصافية المقدسة الموجودة عند الشعب ملاذا له من الاعباء الثقيلة ، وملجأ من كل اشكال القهر والظلم في الحياة ٠ وتعرف الطبقة العاملة جيدا ان الانسان عندما يصاب بالفقر والعوز ، ويفقد الامل لا يسعه الا ان

يتمسك بحبل الدين عزاء اخيرا · وهي ـ الطبقة العاملة ـ لذلك تحس باعمق مشاعر الود والتعاطف ازاء المتدينين الشرفاء ضحايا الآلام ·

ان الماركسية التي هي منهج الطبقة العاملة في فهمها للعالم تستلهم الطبقة العاملة بجميع فئاتها · كما تستلهم جماهير الشعب والفلاحين في موقفها من الدين · وهي تتعاطف مع اولئك الذين يعانون من الازمات الداخلية والصعوبات · والنظرة البروليتارية تعرف جيدا ان الطريق الوحيد لوضع حد لتجارة الدين التي يمارسها الرجعيون والمحافظون في سبيل الابقاء على استغلالهم للشعب واستعبادهم له ، هو تخليص جماهير الشعب من الضيق والاستغلال والعبودية · وهذه النظرة تكن الكثير من الاحترام والتقدير لكل متدين صادق في تدينه غير انها في الوقت ذاته تدأب على تقديم الدراسات والابحاث والشروح الكفيلة بتمزيق الاقنعة التي يختبىء خلفها محترفو الاتجار بالدين ·

ج ـ المجتمع

١) **ماهية المجتمع :** يتراءى المجتمع من النظرة الاولى اليه كما لو كان كومة من البشر جمعت كيفما اتفق ، **الا ان :**

آ ـ هناك في الكومة التي اطلقنا عليها اسم المجتمع **ثلاثة اشياء هي :** الانسان ، والشيء والفكر ·· ومن الواضح **ان الانسان والفكر** مرتبطان بالمجتمع غير

انه يخطـــر لنا ان نتساءل ونقول مـــا معنى « شيء » المجتمع ؟ او « اشياء » المجتمع ؟ اننا نعني ثلاثة امور هي : ١ · وسائل الانتاج او ادواته : وهي الاشياء التي يقتطعها الانسان من الطبيعة ويغير اشكالها لتصبح مفيدة لعمله مثل المطرقة والمنجل والمنظار والآلة ··· الخ ·

٢ · **وسائل الاستهلاك او ادواته** : وهي الاشياء التي ينفقها الانسان من اجل تأميـن مستلزمات الانتاج مثل المأكولات والملبوسات ووسائـــل التدفئة والمأوى والمواد الاولية والمواد الخام ·

٣ · **وسائل التوزيع او ادواته : وهي الاشياء التي** تفيد في ايصال المنتوجات من مكان الى آخر بين الانتاج والاستهلاك مثل السيارات والبواخر والطرق ومختلف **وسائل النقل** ·

ولا تصبح هذه الاشياء الثلاثة من **الاشياء** «**اشياء اجتماعية** » الا بمقدار ما تكون مستخدمـة في المجتمع لنفع الانسان · وبمجـرد ان تصبـح خـارج المجتمع وتبتعد عن **المهمة التي تؤديها لمنفعة الانسان** تنتفي عنها صفتها الاجتماعية فالمطرقة او المنظـــار المتروكان في الغابة ، والسفينة التي غرقت واستقرت في قاع البحر ، والمدينة الاثرية المنسية تحت الانقـاض ، مثلا ، ليست أشياء اجتماعية · الافكـــار : هناك نوعان من العلاقة بين الناس وهمـــا : (١) **العلاقة المادية** : وهي علاقة العمل (علاقة الانتاج ، اي العلاقـــة التي تحدث بين

الناس اثناء اشكال الاشيـــاء لتصبح اكثر فائدة) ٠
(٢) **العلاقة المعنوية** : وهذه تكون عبر قنوات (الحواس + الفكر + الارادة او الرجاء) ويعرف هذا النوع من العلاقة باختصار باسم « **العلاقة الفكرة** » لان الفكر هو الذي يلعب دورا ايجابيا مؤثرا في هذه العلاقة المعنوية٠

ب ـ هل المجتمع كومة ام تجمع حقيقي : هناك نوعان من التجمعات في الحياة هما :

١ ٠ التجمعات المزيفة او المصطنعة : اذا قطعنا آلاف الاشجار وكومناها في احـــدى الساحات مثلا ، نكون قد حصلنا على كومـــة من الاشجار ولكن هذه الكومة تكون عبارة عن تجمـــع مصطنع ٠ واذا جمعنا الفتيات اللواتي في الخامسة عشرة مـــن اعمارهن في احدى الساحات فاننا نكون قـــد حصلنا على جماعة من الفتيات غير انها جماعة مصطنعة او مزيفة ، وذلك لعدم وجود اية علاقة بين هذه الاشجار وتلك الفتيات ٠ والذي جمعها في مكان واحد ليس جملة من العلاقات بل نحن الذين اصطنعنا هاتين الجماعتين ٠

٢ ـ التجمعات الحقيقيـــة او الصحيحة : لننظر الى الاشجار آنفة الذكر قبل قطعها اي عندما كانت غابة حية ٠ فلو اخذنا عددا من الاشجـــار المقطوعة التي كومناها في الساحة فان الاشجار المقطوعـــة الباقية تحافظ على حالتها لانها لا تكبر ولا تصغر ٠ اما عندما

نقوم بقطع قسم من الاشجار الموجودة في الغـابة فان قسما من الاشجار الباقية يشرع نتيجة تخلصه من ظلال الاشجار المقطوعة ، في زيادة معدلات نمـــوه كما ان قسما آخر يتعرض للذبول نتيجـــة العطش بسبب زيادة حدة اشعة الشمس · وهذا يعني ان اشجار الغابة على علاقات وصلات متبادلة فيما بينها على الرغم من انها تبدو منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض · واذا ما حل امر ما في احدى الاشجار فان الاشجار الاخرى تتعرض، نتيجة لذلك ، **امـا للخير او للشر** · ولهذا السبب نطلق اسم التجمع او « الجماعة الحقيقيـــة » على مجموعة اشجار الغابة ·

وهكذا فان الناس الذيـــن يعيشون في المجتمع يؤلفون **جماعة حقيقية تشبه مجموعـــة** الاشجار التي مر ذكرها · **فلو سحبنا عددا من الفتيات اللائي جمعناهن** في الساحة **لظلت مجموعة الفتيات الباقيات على حالهن** · **لنأخذ الآن مثالا من المجتمـــــع** : اذا سحبنا الفتيات الصغيرات **اللواتي يعملن في معامـــل** التريكو بمدينة **استانبول بصورة مفاجئة فان الذي يحصل** :

(١) **يتعرض ارباب العمل الذين** يشغلون الفتيات باجرة يومية **قدرها ثمان ليرات للخسارة** نتيجة حرمانهم من **قوة للعمل بخسة الثمن** ·

(٢) اما العمال الراشدون فيحصلون على اجور **اعلى لان رب العمل لم يعثر على عمـــال** بنفس الاجور السابقة ·

جـ ـ علاقة العمل علاقة من نوع خاص: ان المجتمع هو جماعة حقيقية لان هناك عـــلاقات دائمة من جهة ومتبادلة من جهة ثانية بين الناس ٠ وتكـــون العلاقات الانسانية على نوعين كما اشرنا فيما سبق ، هما علاقات العمل المادية من جهة وعلاقات الفكر المعنـــوية من جهة ثانيـــة ٠

فاية هذه العلاقات تكون اساسية ورئيسية ومولدة للاخرى ؟ ان العلاقات الاساسية التي هي بمثابـــة الام هي علاقات العمل المادية دون ادنى شك ٠ وكيف ؟ قبل الاجابة على السؤال ، لننظر الى الامثلة التالية :

١ ٠ يكون عمال المعمل الواحد على علاقات فكرية بينهم والجميع يعرف بعضهم بعضا ٠ ولكن ما السبب في تعارفهم ولقاءاتهم ؟ اليس اضطرارهم الى العمل في المعمل ؟ واذا لم يكن هناك عمل في هذا المعمل لما التقى مئات الناس تحت سقف واحد الا اذا وجدت بينهم علاقة عمل اخرى في معمل آخر ، ولما تعارفوا ٠٠

٢ ٠ كان الفـــلاح في عهـــد الاقطاع يعيش من محصول الحقـــل الـــذي يعمل فيه ويكتسي بصوف الحيوانات التي يرعاها ٠ ولم يكـــن يبيع او يبتاع اي شيء الى الخارج او منه ٠ وكان نشاطه محصورا ضمن اطار تقديم نصف المحصول او ثلثيه الى الآغا ٠ ومثل هذا الفلاح لا يعرف الا القرية والآغا ، اي لا يعرف سوى اولئك الذين تربطه بهم علاقة عمل ، ولا تهمه الدنيا كلها

مهما اصابها • ولذا لم تكن لغة القرية التي ليست لها علاقة بقرية اخـــرى مفهومـــة تماما في هذه القرية الاخيرة • (ونجد في محافظات تركيا الشرقية الغارقة في اوحال الاقطاع حتى اليوم ان اللغة « الزازاجية » في قرية « بالو »تختلف اختلافا كليا عن اللغة « الكردية » التي يتكلمها اهالي « درسيم » علما ان المسافـة بينهما لا تزيد عن عشر ساعات ، (واللغة ، كمـا نعلم ، هي واسطة الاتصال المعنوي) •

ولكننا لو اخذنا عمال التبغ في استانبول لوجدنا ان الدخان الذي يصنعونه يصل حتى امريكا • وهـذا يعني ان عامل التبغ في استانبول قد اصبح على صلة وله علاقة عمل مع امريكـا • فلـــو اشتدت الازمة في امريكا لادى ذلك الى تضـــاؤل الارباح ، وبالتالي قل انفاق الدخان ، مما يؤدي الى توقف اميركا عن استيراد الدخان التركي • لذلك كله نجد هـــذا العامل مضطرا لمعرفة ما يحدث في امريكا منشئا بذلك نوعا من العلاقة المعنوية مع تلك البـــلاد البعيـــدة • ولو ان فلاح قرية « درسيم » الذي اعتاد عـــلى الا يغادر حدود قريته ، هاجر الى امريكا بحثا عن العمل ، لتعلم لغة الامريكيين الذين يشتغل معهم على الرغم من انه يجهل لغة القرية المجاورة لقريته •

٣ ـ تتألف الكرة الارضية من خمس قارات غير ان فكر الانسان لم يكن يعرف الا ثلاثا منها حتى القرن

السادس عشر وذلـــك لان العلاقات المادية ، علاقات العمل كانت مقصورة بصورة دائمة عـلى هذه القارات الثـــلاث (آسيا ـ افريقيا ـ اوروبا) · وحتى اواخر القرن الخامس عشر لم يخطر ببال احد في العالم القديم ولو « فكرة » بسيطة على امريكا · ومثل هذه « الفكرة » كانت معدومة لدرجة ان واحـــدا من « الانبياء » الذين اكثروا من الحديث والوصـــف الحي والدقيق لاسرار السماء ، لم يستطع ان يرى العالم الجديد الراقد على مسافة مرمى حجر · وقد كان محمـــد (ص) يطيل في وصف « القصور البيضاء عند الاكاسرة » للبداة مـــن العرب ويعدهم بها لان القوافل التجارية العربية المنطلقة من مكـــة كانت تصـــل الى عاصمتي الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية في حين ان السفن العربية لم تكن قادرة على تجاوز الهند والصيـــن · وعلى الرغم من ان النروجيين ، في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، كانوا ، احيانا ، يصلون الى سواحـل امريكا الشمالية فان عملهم ذاك لم يتجاوز ان يكون نوعـا من الصدفة بدلا من ان يكون اساسا لعلاقة عمل وتجارة دائمة ·

وحينما توطدت العلاقات الرأسمالية في اوروبا راح البحارة الاوروبيون يجـــدون في السعي بحثا عن اسواق جديدة ، ثم ادى اتساع العمل المادي (التجارة) ، بالضرورة ، الى اكساب فكر الانسان بلادا جديدة هي : امريكا التي لنا معها الآن اوثق علاقات العمل والفكر ،

فلو انقطعت جميع علاقات العمل والتجارة والمواصلات بيننا وبين امريكا لشرعنا في نفي علاقاتنا المعنوية بل وفي الزعم بأنها اصبحت غير موجودة كليا ٠

نستخلص مـــن الامثلة السابقـــة ان العلاقات **الفكرية** تولد من علاقات **العمـــل** ٠ كما اننا نجد ان النابض الذي يحرك المجتمع ويشغلـــه ، وان رابطته الاساسية ، كامنان في علاقات العمل ٠ فالمجتمع ما هو الا جهاز عمل خاص ٠ (نستطيع ان نشبهه بانبيق ينتج عملا بدلا من قطرات الماء ، وهو موجـــود حيث يصل الجهاز) ٠ فالمجتمع اذن عبارة عـــن اوسع العلاقات العملية المحددة بين الناس ٠

٢) **الفـــرد والمجتمع :** يعيش الانسان في كنف المجتمع ولا وجود للفرد الوحيد المعزول عن المجتمع ٠ كما ان من الواضح انه لا مجتمـــع بدون الانسان ولا انسان بدون المجتمع ٠ وما المجتمع سوى حاصل جمع الناس (الذين هم خارج مقولة الفرد المعزول) مضافا الى الاشياء والافكار ٠ ومما لا شك فيه ان هناك علاقات متبادلة بين الفرد من جهة والمجتمع مـــن جهة ثانية ٠ ولكي نفهم محتوى هذه العلاقة سنستعرض النقطتيـــن التاليتين :

آ ٠ **من الذي يصنع الآخر ؟** الفـــرد ام المجتمع ؟ نحن نعلم ان الافراد يأتون الى المجتمع بصورة افرادية ٠ وليس القادم الجديد الى المجتمـــع سوى الطفل الوليد

الذي نستطيع وصف اوضاعه بما يلي :

أ ـ لا يكتفي المولود بالمجيء الى المجتمع الذي يولد فيه وحيدا ، بل ويأتي خلوا وعاريا من اي شيء في الوقت نفسه · وبمقدار ما يكون جسده عاريا يكون رأسه فارغا لا يحتوي على اية فكرة مهما كانت صغيرة ·

ب ـ وفي مقابل هذا الزائر الجديد العاري تماما من الناحيتين المادية والمعنوية على حد سواء ، نجد ملايين الناس ، والاشياء المكومة كالجبال (الابنية والآلات وغيرها) والافكار المجمعة في الاسفار والقواميس المحيطة المجامعة (كالعادات والتقاليد والاعراف وانماط التربية والعلوم و ·· الخ) مالئة الدنيا ·

وبعد الوقوف على هذا الوضع هل نستطيع الزعم بأن ذلك الفرد الصغير الذي يتعرض للموت المؤكد لو بقي يوما واحدا دون حماية المجتمع ، هو الذي يحدد ابعاد المجتمع ويتحكم بمصائره واقداره ؟

ولا تقف المسألة عند هذا الحد اذ اننا نجد ان المجتمع هو الذي يتحكم في مصير الفرد لا بعد ولادته فقط بل ومنذ شروعه في التكون داخل رحم امه · فيصبح « وحشيا » اذا حملت به احد النساء اللواتي يعشن حول بحيرة تشاد · و « متحضرا » اذا ما حملت به احدى نساء اوروبا · اما اذا كان الرحم الذي بدأ تشكله فيه عائدا لاحدى عشيقات صاحب البنوك

الافرنسي فيغدوا واحدا من مشاهيـــــر الوطنيين في فرنسا · واذا كان الرحم رحم احدى كنائن الحاج بـ صاحب المعامل في « بورصة » لاصبـــح الفرد مواطنا تركيا متشددا في دينه ، واذا كان عائدا لاحدى الصينيات لا بد وان يصبح الفرد منذ بلوغـــه الخامسة من العمر شيطانا يعمل في دهاليز المعامل بحفنة من الارز · واذا كانت صاحبة الرحم زوجة احد الرفاق العمال يفتح الفرد عينيه على الحياة وقد اصبح شابا اشتراكيا مناضلا ··

عندما يجيء الفـرد الى المجتمع ، فهـو لا يأتي الى حيث يريد ، بل الى حيث تعيش امـه ، سواء اكان ذلك قصرا منيفا ام مزرعة تافهة او قرية نائية · وتقوم اسرته بصـــــب اولى الانطباعات في رأسه مع قيامها بتنقيط قطرات الحليب من الثدي في فمه · ولا يستطيع الفرد ان يرغب في هذا ويعرف عن ذاـــــك فحتى يملك الارادة والرغبة ينبغي عليه اولا ان يقدر على ان يفعل· ومهما شدد الدستور على الزعم بان « كل مواطن حر » فان الفرد لا بد له من ان يصبـــح عـــــلى دين اسرته وقوميتها · فاذا كانت هذه القومية تركية اصبح تركيا، واذا كان دينها ارثوذكسيا اصبح هو ايضا كذلك ، واذا كانت الاسرة عمالية اصبح عامـــلا ، واذا كانت من حثالة البروليتاريا فلا بد وان يصبـــح ، بالضرورة ، واحدا من « الزعران » الذين يؤلفون حثالة المجتمـع · وبعد ، لنأت الى حيث يبلغ السابعة من عمره : فاذا كان

الفرد الذي نتحدث عنه من المحظوظين الذين سيدخلون المدرسة فانه سيتعلم من خلال الكتـــب التي فرضتها وزارة التربية الوطنية عن الذي انقـــذ البلاد ، وعن شرف الموت في سبيل الشعب عن ظهر قلب · وبعد ذلك سيذهب اما الى العمل اذا كان ابن احد العمال او الى معهد « علطة سراي » (الحرية ـ دار السلام) اذا كان ابن احد الاغنياء ·

وحتى يبلـــــغ العشرين او الخامسة والعشرين سيظل مدمنا على قـــراءة ادبيات وروايات « زهرتان وفراشة » (·· الوسادة الخالية ـ لا انام) ـ المترجم ـ وسيتعلم ان الروح هي فوق المادة ولا تناقض بينهما ، وان القومية التركية او الامـــة التركيـــة الخالية من الطبقات المتصارعة هي فوق كل العالم ، ولا مثيل لها في كل انحاء الارضية · وهكـــذا يكـــون رأسه قد امتلأ وانتهى ، وصارت حقوقه ومستقبله محددة تماما · اذ يكون قد سار في احدى الطـــرق التالية دونما امل في العودة : طريق المصرفي الذكي « الشاطـر » او طريق الفلاح التقليدي المحافظ ، او طريق العسكري ذي الثياب والنياشين المتلألئة ، او طريق العامل ذي البزة الرمادية او ··· الخ · وهناك سيلعب فردنا الدور الذي يناط به من قبل المجتمع الذي وجد فيه والطبقة التي انتسب اليها ، وسيحمل الافكار التي تفرض عليه من قبل ذلـك المجتمع وتلك الطبقة · وعندما يصـل الفرد الى مرحلة

النضج الذي يؤهلـــه لان يمارس النقد الذاتي ونقد البيئة المحيطة به تكون المصلحـــة (مصلحته) ، على الاغلب ، قد قطعت الطريق على مثل هذا النقد · وهذه المصلحة هي التي تعرف باسم المصلحة الطبقية ·

نستطيع ان نشبـه الفرد الذي استعرضناه حتى الان بقطعة الاسفنج الواقعة في بحر المجتمع · فكـــل محتويات قطعة الاسفنج ماخوذة مـــن البحر · واذا عصرنا الفرد ، كما نعصر قطعة الاسفنج ، نجد ان كل الاشياء التي تعتصر فيه ، والتي يظنها له هو (من دين واخلاق وعادات وتقاليد وعلم ووجهة نظر ·· الخ) ما هي الا من (الاسرة والبيئة والحياة والطبقة) التـــي يعيش فيها · اذ ان اللغة التي يتكلمها ، والامزجة التي يظهر بها ، والافكار التي يحملها مأخوذة جميعـــا مـــن المحيط الذي يلفه من كل الجوانب ·

لذلك كله نقول : ان الذي يصنع الاخر هو المجتمع وليس الفرد · ونحن نفم ماهية الفرد اي سبب ايمانـــه بدين معين بدلا من دين آخر ، وسبب تشغيله فتيـــات قاصرات باجرة متدنية بدلا من تشغيل عمال راشديـــن على الرغم من اطالته في الحديث عن الوطنية والوطن، وسبب كونه قاتلا او منتحرا ، مطيعا للسادة والزعماء الكبار او متمـــردا عليهم ، روحيا مثاليـــا او علمانيـــا ماديا ، من خلال النظر الى السلوك الذي يسلكـــه في المجتمع · واذا ذاك نكون قد رأينا سبب صيرورة الفرد

بهذا الشكل ، الشكل الاخر ·

ولنحاول ان يأخذ ذلك عكس الطريق الذي سلكناه في الفقرات السابقة ولنشرح ، مثلا ، في تفسير الحكم الاستبدادي الذي كان قائما قبل عام ١٩٠٨ ، عن طريق رده الى الميالة الى الظلم عند الملوك ، وفي تفسير الامزجة عن طريق ردها الى دهاء الجنرالات ، ان ذاك لا بد وان يعترضنا السؤال التالي : لماذا لم يكن لجنرالات اليوم وجود قبل تاريخ ١٩٠٨ ؟ واذا كان الملوك قد ارادوا طوال تلك السنين البقاء في الحكم ، اليسوا الآن راغبين في استمرار حكمهم ؟

هناك ، احيانا ، بعض القادة الافذاذ الذين فيه ان يلعبوا ادوارا يعجز عنها الافراد العاديون . اولا يستطيعون ان الافراد رهن مثل هذا الامر اذن ، على الذين يتحكمون في اقدار المجتمعات ؟ لا ، وليتضح ذلك سنمعن النظر في المثالين التاليين :

١ · بكل الرأسماليين قادرا على توفير العمل لآلاف العمال ذات الدولة بدءا من لخرج من الشارع ، والمحافظ ف « الحرة » ترمي منظمي الاضراب والمحتجين بالسنة من اللهب · واثناء

النضج الذي يؤهلـــه لان يمارس النقد الذاتي ونقد البيئة المحيطة به تكون المصلحـــة (مصلحته) ، على الاغلب ، قد قطعت الطريق على مثل هذا النقد · وهذه المصلحة هي التي تعرف باسم المصلحة الطبقية ·

نستطيع ان نشبـه الفرد الذي استعرضناه حتى الان بقطعة الاسفنج الواقعة في بحر المجتمع · فكـل محتويات قطعة الاسفنج ماخوذة مـن البحر · واذا عصرنا الفرد ، كما نعصر قطعة الاسفنج ، نجد ان كل الاشياء التي تعتصر فيه ، والتي يظنها له هو (من دين واخلاق وعادات وتقاليد وعلم ووجهة نظر ·· الخ) ما هي الا من (الاسرة والبيئة والحياة والطبقة) التـي يعيش فيها · اذ ان اللغة التي يتكلمها ، والامزجة التي يظهر بها ، والافكار التي يحملها مأخوذة جميعـا مـن المحيط الذي يلفه من كل الجوانب ·

لذلك كله نقول : ان الذي يصنع الاخر هو المجتمع وليس الفرد · ونحن نفم ماهية الفرد اي سبب ايمانـه بدين معين بدلا من دين آخر ، وسبب تشغيله فتيـات قاصرات باجرة متدنية بدلا من تشغيل عمال راشديـن على الرغم من اطالته في الحديث عن الوطنية والوطن، وسبب كونه قاتلا او منتحرا ، مطيعا للسادة والزعماء الكبار او متمـردا عليهم ، روحيا مثاليـا او علمانيـا ماديا ، من خلال النظر الى السلوك الذي يسلكـه في المجتمع · واذا ذاك نكون قد رأينا سبب صيرورة الفرد

بهذا الشكل دون ان يأخذ الشكل الاخر ٠

ولنحاول الآن سلوك عكس الطريق الذي سلكناه في الفقرات السابقة ولنشرح ، مثلا ، في تفسير الحكم الاستبدادي المطلق الذي كان قائما قبل عام ١٩٠٨ ، عن طريق رده الى الامزجة الميالة الى الظلـم عند الملوك ، وفي تفسير حرب الاستقلال عن طريق ردهـا الى دهاء الجنرالات « الباشاوات » ٠ اذ ذاك لا بد وان يعترضنا السؤال التالي : لماذا لم يكن لجنرالات اليوم وجود قبل تاريخ ١٩٠٨ ؟ واذا كان الملوك قد ارادوا طـوال تلك السنين البقاء في الحكـم ، اليسوا الآن راغبين في استمرار حكمهم ؟

مما لا شك فيه ان هناك ، احيانا ، بعـض القادة الافذاذ الذين يستطيعون ان يلعبوا ادوارا يعجـز عنها الافراد العاديون ٠ اولا يبرهن مثل هذا الامر اذن ، على ان الافراد هم الذين يتحكمون في اقدار المجتمعات ؟ لا ، وليتضح ذلك في اذهاننا سنمعن النظـر في المثالين التاليين :

١ ٠ يكون احـد الرأسماليين قادرا على توفير العمل لآلاف العمال في المعمل الذي يملكه ٠ ولو اضرب العمال ذات يـوم لخرج لاعتراض سبيلهم كـل موظفي الدولة بدءا من المحافظ وانتهاء باصغـر شرطي ، الى الشارع ، ولراحت الصحف « الحـرة » ترمي منظمي الاضراب والمحرضين عليه بالسنة من اللهب ٠ واثناء

الاجتماع في الغرفة التجارية لبحث قانون العمل يتم الاصغاء الى تقرير صاحب المعمل ، وبعد ذلك يجري تعديل قانون العمل ويصدر صك بذلك عن رئيس الوزراء يحمله ذلك الرأسمالي (صاحب المعمل) من العاصمة الخ ·· في حين ان المطلوب كان تعديل « قانون تشجيع الصناعة الوطنية » · فلماذا نجد الرأسمالي الفرد بمثل هذه القوة ؟ ذلك لانه يملك رأس المال · **وما رأس المال هذا** ؟ انه قوة **اجتماعية جرى تجميعها عن طريق سرقة جهود العمال والفلاحين خلال سنوات طويلة** · وبمجرد قيام العمال في روسيا بثورتهم المشهورة اعادوا رؤوس الاموال الى اصحابها الحقيقيين ، الى الكادحين الذين انتجوها فعلا ، فعزّ العثور على جحر يختبىء فيه هؤلاء الرأسماليون اللصوص ، لان القوة الخاصة بالمجتمع والمعروفة باسم رأس المال كانت قد انتزعت من ايديهم وبراثنهم ·

٢ ـ يشن احد الجنرالات هجوما بجيوش يبلغ تعدادها مئات الآلاف قاطعا الجبال والانهار ضد جيش آخر ، فيحتل المدن ويحرر البلاد · فهل يستطيع كل «فرد» ان يفعل ذلك ؟ ليكن جوابنا «لا» اذا شئتم ، ولنتجاوز مسألة كون فلان من الناس جنرالا او رأسماليا بالفطرة او منذ الولادة ، ولنغض النظر عن سؤال ما اذا كان الجنرال قد صنع ، مثل الباري عز وجل ، الاسلحة التي استخدمها ، والجنود وضباط الصف والضباط الذين

يأتمرون بأمره من الطين ، ولننظر فقط الى كيفية قيام ذلك الجنرال بقيادة جيشه · عندئذ نجد ان التقارير التي يتلقاها من القطاعات ، والاستخبارات ، وناقلي الاوامر من ضباط الارتباط ، ونافخي الابواق ، والتلفونات التي تنقل اوامره ، واخيرا نظام الطاعة الخاص الذي لا بد منه في كل تنظيم هرمي عسكري ، هـي التي تمكنه من القيام ، وهي جميعا ليست من ابداع الجنرال واختراعه بل نتاج خبرات المجتمع المتراكمة خـلال مئات السنين ومناهجه وادواته · ولو جرى فقدان احد الاشياء التي اوردناها من خلال تمرد الجند ورفضهم للاوامر مثلا ، او عن طريق انقطاع الصلة بيـن الجيش وقطاعاته المبعثرة ، فالى ماذا تؤول حالة جنرالنا ؟ ولو كان ارفع وادهى واعلم القادة في الدنيا فما الذي يستطيع تحقيقه بجيش دون نظام طاعة ودون ارتباط غير الهزيمة المحققة؟ وهذا يبين بوضوح تام ان ما نظنه قوة الجنرال الفردية تأتيه من قوة التنظيم ومستوى هذا التنظيم يتوقف على نوعية المجتمع الذي يعيش فيه ·

ب ـ أليس للفرد ايدور في المجتمع؟ بغية جعل الامور التي قلناها فيما سبق اكثر حياة ، كنا قد شبهنا الانسان بقطعة من الاسفنج المستقرة في البحر · ولكن الانسان ليس بالتأكيد قطعة اسفنج لا حيـاة فيها ودون تأثير · فالذي يصنع الانسان ، مثله مثل المجتمـع ، هو العمل الذي يقوم به والحياة التي يعيشها · فاذا كانت انماط

عيش الناس ومصالحهم في المجتمـــــع متطابقة فلا بد للقادمين الجدد من ان يذوبوا في هذا المجتمع وينسجموا معه بصورة سريعة · اما اذا وجد في المجتمع جماعات من الافراد وطبقات بعضها يعمل وبعضها الآخر يصدر الاوامر فلا بد عندئذ من ان تختلف طريقة العيش فيمـا بين هؤلاء واولئك ، ولا بد لمصالح هؤلاء واولئك من ان تتناقض مما يؤدي بالفرد الى ان يضطـــر للاتجاه نحو احد الاتجاهين التاليين :

١ · يرى افراد الطبقة المستغلة (بكسر الغين) ان الافكار التي اخذوها من المجتمـــع مع مرور الزمن ليست متناقضة مـــــع مصالحـــهم الطبقية فيتبنونها ويساهمون في تدعيمها وتقويتها ، ولا وجود هنا لاي عسر هضم او فساد في المعدة » ·

٢ · اما افراد الطبقة الكادحة المستغلة فيواجهون وضعا مختلفا تمام الاختلاف :

(أ) تكون الجوانب الرفيعة والسامية في التربيـــة التي يتلقنونها والافكار التي يتعلمونها هي نفس تربية وافكار الطبقة الحاكمة المهيمنة مما يؤدي الى ان تتثاقل رؤوسهم بسبب هذا اللغو الفارغ الذي تم حشوهم به منذ ايام الطفولة · وبما ان حياة الاطفـــال تعتمد على الاشياء الجاهزة التي تلقى في افواههم فانهم لا يرون بأسا في ابتلاع « المخللات » الفكرية المعدة سلفا كما هي· الا انهم عندما يدخلون معترك الحيـــاة ويشرعون في

تحصيل قوت اليوم لا من تناول الطعـام الجاهز بل من العمل وبذل الجهد ، يبدأون بالوقوف ، ولو بصورة غير واضحة تماما ، على حقيقة ان الامور التي يرونهـا لا تتطابق مع الامور التي يعرفونها · فتبدأ « المخللات » الفكرية التي سبق لهم ابتلاعهـا بالتسبب في « فـرط » معداتهم وتخريب اجهزة الهضم عندهم ·

(ب) الى جانب ذلك فان الطبقة التي ترعرعوا فيها هي ، منذ امد بعيد ، جماعة مـن الناس الذين جرى افساد معداتهـم بواسطـة حشيش الطبقة الحاكمة وافيونها · ولربما ساعدت تأثيرات الطبقة على تعويد الطفل منذ نعومة اظفاره على تعاطي مثل هذا الحشيش والافيون · وحينئذ تشرع المخللات التي تقدمها الطبقات المستغلة (بكسر الغين) للطبقات المستغلة (بفتح الغين) في ان تصبح غير ذات جـدوى ، فتتمايز داخل المجتمع طبقتان تتناقض مصالحهما وتتعـارض افكارهما لتقفا وجها لوجه ·

لننظر الآن الى ما قلناه من زاوية اخرى : قلنا ان هناك (الناس + الافكار + الاشياء) في المجتمع · ولكن واحدا فقط من بين هذا الثلاثي فعـال وحي الا وهو : **الانسان ··· اما الفكر فليس شيئا في الهـواء بل في رؤوس الناس** ، كما ان الاشياء لا تتحرك ولا تقوم بانتاج البضائع الا اذا حركها الانسان · فالعلاقة بين الانسان وكل من الافكار والاشياء **جدلية** ، ولا يمكن تصور افكار

او اشياء اجتماعية او حتى مجتمع بدون الانسان · ان الفرد هو سبب وجود كل صغيرة وكبيرة في المجتمع · ليس هذا الفرد ، اذن ، قادرا على تسيير المجتمع وفق رغباته ؟ ومن ثم توجيهه الى حيث يريد ؟ من المعلوم ان الانسان صاحب ارادة ، والسؤال هو : هل لهذه الارادة تأثيرها على المجتمع ؟ الجواب هو : نعم ، وهل يعطي مثل هذا التأثير النتيجة التي يريدها الافراد بصورة مؤكدة ومطلقة ؟ للاجابة على السؤال الاخير لا بد لنا من العودة الى المثالين السابقين :

١ ـ في المجتمع الطبقي : يقوم رب العمل في المجتمع الرأسمالي ، مثلا ، بتكويم كميات كبيرة من السلع عن طريق تشغيل العمال ١٢ ـ ١٤ ساعة في اليوم من اجل زيادة ارباحه ، غير انه بعمله هذا ، اي باعطاء العمال اجورا قليلة تكسد سلعه التي لا تجد من يشتريها · ومع حلول الازمة تنخفض الاسعار بصورة مخيفة · وحينئذ يتعرض رب العمل ، الذي كان يحلم في الربح ، الى الخسارة التي قد تصل درجة الافلاس · لقد دخل قيصر المانيا الحرب العالمية الاولى بغية ابتلاع الهند والصين بواسطة سكة حديد قطار الشرق الذي يمر بتركيا الا انه عندما ووجه بانتفاضات العمال الالمان اضاع عرشه وملكه جميعا · فلماذا لا يصل الافراد ولا تصل الطبقات الى الاهداف التي يضعونها

بصورة مؤكدة ، بل ويتعرضون لخطـــر الوقوع فيما يتناقض مع تلك الاهداف ؟

ذلك لاننا اذا شبهنا المجتمع بعربة فاننا نجد ان احدى الطبقتين تجرها نحو اليمين والثانية نحو اليسار مما يجعلهـــا لا تسير وفـــق ارادة او رغبة اي من الطبقتين ، بل وفق خط مغاير · وعندما تتمكن احدى الطبقتين من شل قوة الطبقة الاخـــرى ، ولو لفترة من الزمن ، فان هذه الطبقة تقدر عـلى سوق المجتمع في الاتجاه الذي يريده · وهذا يعني ان الافراد يخضعون للمجتمع طوال استمرار وجود الطبقات ·

٢ · في المجتمع الخالي من الطبقات : ينتفي وجود الطبقات في المرحلة العليا مـن الاشتراكية · وفي ظل مثل هذا النظام يكون كل فرد من افراد المجتمع جزءا من مجتمعه متساويا مع غيره في الحقـــوق وله مصالح مشتركة مع الآخرين · وهنا يجري تسيير الاعمال من مركز واحد وتكـون منتظمـة كدقـات الساعـة · ولا يستطيع احد ان يقول : « هذا مالي ولا دخل لاحد فيه » فكل شيء ملك للجميع ، ولا يمكـــن لمصلحة احد ان تتحقق على حساب الآخر او لضرره · ومـا من احد يضع حجر عثرة على طريق تحقيـــق ارادة غيره ، بل ويساعده في تحقيقها · وفي ظل جملة هذه الشروط نستطيع ان نأخذ عربة المجتمـــع الى اليمين ان شئنا والى اليسار ان رغبنا في ذلك · ولا بد لها من ان تلبي

مشيئتنا ورغبتنا فتسير وراء الافراد ، لا العكس حيث يتراكض الافراد وراءها لاهثين ٠

هذا يعني ان الافراد في المجتمع الخالي من الطبقات يخضعون المجتمع لارادتهم ٠ ويبقى الافـــراد في كل الاحيان يؤلفون محرك المجتمع ، غير انه عندما يجري تشغيل المحرك في الاتجاه المعاكس لا بد لـــه من ان يتوجه نحو الجهة غير المرغوب فيها ، امـــا اذا جرى تشغيله في الاتجاه الصحيح فـــلا يسعه الا ان يسير نحو الجهة المطلوبة ٠ ولو كـــان لكل من محركات البواخر التجارية ذوات العنفـات المزدوجة رأس مفكر لتساءلت ولسان حالها يقول : « لماذا نحن عاجزون عن التحرك يمينا او شمالا في الوقت الذي نصرف فيه طاقة كبيرة ، عنفة تشد الى اليمين واخرى تشد الى اليسار؟ وهل القوة التي تجر الى الامام روح خاصة فوق قوة المحرك ؟ »

ولدى النظر الى المجتمع الذي نعيش فيه اليوم نجد بعض العادات والانظمة والافكار التي تبدو ثابتة لا تتغير ٠ ونحن نعرف ان هناك مجتمعات صغيرة في كل من اوستراليا وامريكا الجنوبية لا تشبه مجتمعاتنا في شيء ، وهذه المجتمعات الصغيرة تعـرف باسم : « المجتمعات المتوحشة » ، اما نحن فلسنا « متوحشين » واذ ذاك يتطوع بعضنـــا لتفسير الامـــر فيعتبر تلك المجتمعات « المتوحشة » مجتمعات تلقت لعنة الله ،

او هي من عروق بشرية منحطة ومتخلفة عاجـزة عن انتاج « رجال اذكياء » مثل اذكياءنا ٠

وهؤلاء الذين يأخذون مثل هذه الاعتبارات مأخذ الجد يكونون قد التقطوا افكارهم مـــن الرأسماليين والمالكين الرأسماليين والمالكيـــن العقاريين لان هؤلاء البرجوازيين والاقطاعيين مضطـــــرون في مجتمعهم بالذات ان يروا في فقراء العمـــــال والفلاحين اناسا منحطين ومتخلفين ومبتذلين ، وان تخلفهم وانحطاطهم ناتج عن « قحط في الدهاء والتفكير » او عن لعنة نزلت عليهم من السماء ٠ اما الطبقة العاملة ، فبما انها هي نفسها « الطبقة الدنيا » ، فانها لا تتوجس خيفـــة من البحث في ماهية المتوحشين ، وفي المصدر الذي اتوا منه ، على حقيقتهما ٠ فكمـــا ان العمال لم يصبحوا طبقة دنيا بسبب « عدم الذكاء والحنكة » فليس تخلف المجتمعات البشرية المتخلفة ناتجا عن « فـراغ رؤوس افرادها » ٠

ومن هذه النقطة نجدنا مـــرة اخرى وقد بدأنا بدراسة تاريخ البشرية ككل ، واذ ذاك نتذكر انه كان في بلادنا ، قبل مجتمعنا الرأسمالي الراهن ، رأسمالية اخـرى عرفت باسم « المشروطيت » ، وقبـل ذلك كنـا نعيش في ظل السلطنة الاقطاعيـــة بقوانينها ونظمها الخاصة ٠ وكـــان الاتراك قبل السلطنة العثمانية ، يعيشون حياة بداوة وترحال في مجتمعات عرفت باسم

القبائل والعشائر · وكان يحدث في تلك القبائل والعشائر البدائية امور غريبة ، تتقزز منها نفوسنا اليوم · فقد كان الابن يتزوج امه لدى موت ابيه على سبيل المثال · وهكذا نرى ان مجتمعنا ايضا لم يكن على ما هو عليه بصورة دائمة · فقد تغيرنا نحن ايضا بعد ان كنا « متوحشين » ذات يوم ، على مر السنين والقرون ··· فما هي الاشكال التي مر بها المجتمع خلال تطوره منذ اول ايامه وحتى وقتنا الراهن ؟ ان الاجابة الوافية على هذا السؤال من مختلف الجوانب تشكل موضوعا اخر · ولكننا هنا سنكتفي باعطاء مثال غير مألوف عن التغيرات الاكثر بروزا الا وهو :

٣) المشاعية البدائية وحق سيادة الام : (الحق الامي):

ان المشاعية هي مجتمع العصر الاول او البدائي ، و« المشاعية البدائية » هي المجتمع الانساني الاول الذي كشف عنه العلم في اواخر القرن التاسع عشر · ويتميز هذا النمط من المجتمع بالخصائص التالية :

أ ـ انعدام الملكية الخاصة : ليس في هذا المجتمع من يقول : « هذا لي ، وذاك لك » فكل فكل شيء ملك لكل افراد المجتمع · ولا ترى عين انسان المشاعية البدائية اية «قيمة» في الاشياء « الثمينة » التي تزيغ ابصار المتحضرين المتمدنين · فعندما وصل الاسبانيون الى القارة الامريكية ، مثلا ، راح « المتوحشون » الذين التقوا بهم في جزيرة (سان سلفادور) يخلعون الذهب

الذي كانوا يطوقون به رقابهم ويقدمونه لهم دونما حاجة الى ان يطلبونه · وقد وصف احد المؤرخين المشهد بالعبارات التالية : « عندما رأى المتوحشون عيون الاسبانيين التي صارت تزوغ من النظر الى الذهب والتحديق فيه ، بادر هؤلاء المتوحشون الى تقديم اشيائهم المصنوعة من هذه المادة الى الاسبانيين ويدلونهم الى جهة الغرب حيث تتواجد كميات الذهب» (محمد مراد « التاريخ العام ـ المجلد الخامس ص ٣٤١ ـ ٣٤٢») ·

ولنذكر القارىء عرضا بان المتحضرين المتمدنين من الرأسماليين ذبحوا هؤلاء « المتوحشين » الذين اعطوهم كل شيء ، حتى آخرهم ·

في هذا المجتمع البدائي حيث لا وجود للملكية الشخصية ، يروي عن ان هناك شيئا وحيدا يعود للافراد ويخصهم الا وهو : **الاسم** ··· والذي يستطيع كل مشاعي بدائي ان يقول عنه : « هذا لي » ليس سوى اسمه · ولكن هذا الاسم بالذات والذي يبدو كما لو كان عائدا للفرد ، ملك للمجتمع · فلو ملك الفرد اسمه مدى حياته فان هذا الاسم لا بد وان يعود الى المجتمع فور وفاته ·

ب ـ المساواة : كل الامور والقضايا في المجتمع المشاعي البدائي تخص الجميع مثلها مثل كل الخيرات والاشياء · وبسبب انعدام ازدواجية المصالح بين الناس لم تكن اية حاجة تستدعي مجموعة التحريمات

كذلك لم يكن العقل مؤهلا لقبول فكرة امكانية سيادة الرجل على المرأة وتفوقه عليها • فكما ان هناك اخوة ومساواة تامة في العمـــل والعيش كذلك كانت المرأة والرجل متساويان في الحقوق ، ولم يكن اي رجل ملكا لاية امرأة ولا اية امرأة سلعة بيد اي من الرجل وكان المجتمع كله عبارة عن اسرة واحدة •

هـ ـ المفاهيم والافكار : بما ان الناس في المجتمع متساوون ، كان لابد للمجتمع ان يظهر مشبعا بالمساواة الكاملة في طبيعتـــه داخل ضمائـــر اولئك الناس وارواحهم • اي ان الطبيعة والمجتمع كانا يبدوان كمـــا لو انهما لا يختلفان • فكمـــا ان الانســـان الفرد كـــان عاجزا عن ان يفرق بين ذاته وبين مجتمعه الانساني ، كذلك كانت المجتمعات البشرية عن ان تفرق بينها هي من جهة وبين مجموع عناصر الطبيعـــة الشاملة من جهة ثانية • وكما ان انسان المجتمع ينطلق من دافع ما يحركه نحو هدف معين في كل حركة مـــن حركاته ، كذلك تماما جرى اعتبار كـــل الحركات الصادرة عن جميع الموجودات والكائنات التي هي خارج الانسان ، ذوات اهداف محددة بالضرورة ، ولـــو بصورة غير مباشرة •

وعرفت النظرة او طريقة الفهـــم التي تعتبر كل حركة من حركات الوجود الذي يتألـــف من المجتمع الانساني والطبيعة مجتمعين ، حركة حية ذات هدف محدد ، باسم : الحيوية • ولقد كان كل افراد المشاعة

البدائية في كل معتقداتهم وافكارهم حيويين · واتبعوا طريقة في التفكير تسلم بأن كل حوادث الطبيعة ، مثلها مثل حوادث المجتمع ، انما تجري لتحقيق هدف معين · وبعد ذلك عرفت مناهج تفكير اناس مجتمع الحضارة مجتمع الطبقات باسم : « المنطق ·· لوجيك » واذ ذاك صار يعرف منهج تفكير الحيويين في المشاعة البدائية باسم : « ما قبل المنطق بريلوجيك » ·

لم تكن مفاهيم افراد المجتمع المشاعي البدائي ، الانسانية منها وما فوق الانسانية ، مثلها مثل جميع مشاعره وافكاره وتمنياته، تعمل بموجب قوانين المنطق الذي نعرفه ، بل بموجب قوانين واصول ما قبل المنطق · والطوطم بالنسبة لبربري الطور الادنى حيث لا وجود لاصحاب الامتيازات ، نتاج لمثل ذلك النمط من التفكير ، كمـــا ان معتقـــدات التابو (التحريمات) في الطور البربري الاوسط حيث ساد الحق الابوي (البطريركية) مع امتلاك الرجل لقطيع من نتاج ذلك النمط من التفكير ايضا · وهذا النمط التفكيري ، وان كـــان لا يتفق مع منطقنا الحالي ، كان مفهوما وطبيعيا بالنسبة لاسلوب عمل ما قبل المنطق ·

ولقد كان الفن ايضا ، مثل باقي الاشياء ، شيئا مشتركا في المشاعية البدائية الاشتراكية ، فضلا عن انه لم يكن متشعبا الى فروع مستقلة · وكان كل فن ثلاثي الوجوه يحتوي على الشعر والموسيقى والرقـــص ·· التي كانت عمل وواجب كـــل اخوة الدم في المشاعة

ويمارسونها سوية · فكما ان الفرد ملك للجماعة كذلك يغدو كل الافراد داخل الجماعة ومـــن خلالها شعراء وموسيقيين وراقصين · ولم تكن ايـــة حاجة تدعو في مجتمع المشاعية البدائية الى تمزيـق الانسان وتقطيعه عن طريق الزعم بأن فلان شاعر وفلانا الآخر موسيقي و ··· الخ كما يجري في المجتمع الطبقي حيث التمزق الروحي والتوزع الثقافي ·

ان مواقف الناس في مجتمع المشاعة الاشتراكية البدائية التي اوجزنا صفاتها في الفقـــرات السابقة ، مواقف متناقضة مع مواقف الناس في انماط المجتمعات التي اتت بعد ذلك وحتى يومنا هـذا ، وهي المجتمعات المشادة على اساس الطبقات الاجتماعيـــة التي نطلق عليها اسم : مجتمعـــات الحضارة ، نتيجة للاسباب التي وردت معنا في كل الازمنـــة والامكنة · ونحن في منتصف القرن العشرين نعرف آلاف التيارات المتناقضة التي تسبح في بحارها المجتمعات الطبقية ، بهذا القدر او ذاك · ولا مجال هنا لايراد تفاصيل تلك التناقضات · بل يكفي ان ندعو القارىء الى عقد مقارنة بين الكلمات الموجزة التي اوردناها عن المشاعية البدائية من جهة ، وبين مفاهيم وافكار ومعتقدات المجتمعات الطبقية التي يعيش فيها من جهة ثانية · وبما ان اجـــراء مثل تلك المقارنة عملية سهلة يستطيع كل الناس القيام بها وحدهم فاننا نوقف اسطرنا عند هذا الحد ·

19 مارس 1983

مكتبة الشبيبة

هذا هو الكتاب الأول من سلسلة جديدة في مجموعة دليل المناضل: مكتبة الشبيبة. وهي تنضم الى شقيقاتها السبع من مجموعة دليل المناضل:

١ - في النظرية - ٢ - تجارب أشتراكية - ٣ - تجارب حزبية - ٤ - تجارب حركات التحرر الوطني - ٥ - المكتبة الأدبية - ٦ - المكتبة الأقتصادية - ٧ - دراسات عربية.

وإذا كانت المجموعات السابقة تهدف الى تقديم « خلاصة مبسطة قدر الأمكان لمختلف فروع المعرفة بمنهج علمي تقدمي » للقارىء العربي فأن السلسلة الجديدة تتوجه الى الشباب الذين يطلّون على المعرفة في بداية نضجهم ووعيهم.. لتقدمها لهم بأسلوب مبسط ولغة سهلة سلسة قدر الأمكان.. انها مكتبة خاصة للشبيبة العربية التي تطمح لصنع مستقبل عربي متحرر ومتقدم!

الثمن: ٣. ل. ل او ما يعادلها